صاحبها ومحررها
سلامه موسى
المجلد السادس





يونيه سنة ١٩٣٦

سير الحوادث

ابتهج الشعب بعودة الوزارة الدستورية ابتهاجا عاما بعد ست سنوات قضاها تحت حكم المستبدين وفى هذه السنوات الست فسد كثير من الادارة والتعليم وبعثرت أموال الأمة فى بناء مفوضيات أو تأثيثها واختراع أبواب للانفاق تفوق حدود التصديق . ورجال الوفد الذين يديرون الآن شئون الدولة سيحتاجون إلى مجهود كبير لا لتنظيف الادارة وغير الادارة من الاقذار المختلفة من حكم المستبدين بل هم سيبذلون مجهوداً آخر لتربية الموظفين من جديد على خدمة الأمة وعلى انهم هم الخدم والأمة هى السيدة . وهؤلاء الموظفون قد تعلموا عكس ذلك طول مدة الوزارة فى عهد اسماعيل صدقى باشا . وسيحتاجون إلى أن يضعوا تقاليد جديدة بل إلى غرس مزاج جديد فى رجال الادارة

ونحن نغش أنفسنا إذا كنا نظن ان كل ذلك الفساد الذى سرى فى الحكومة كان مرجعه إلى اسماعيل صدقى باشا وحده . فان له شركاء كانوا يتفقون معه فى أن الأمة يجب أن تحكم بالسيف والنار وانها عاجزة عن حكم نفسها وانه خير أن ينفق مليون جنيه على انشاء المفوضيات من أن ينفق الف جنيه على التعليم . وان المأمور الذى يستبد ويضع العصا فى الدبر للتعذيب والاهانة لايستحق اللوم العظيم وان رجل الادارة له الحق فى ضرب الرصاص وفى شتم الزعماء . وهذا المزاج الذى يقوم عليه هذا التفكير هو نفسه الذى يدعو إلى انشاء مدرسة لأبناء الأغنياء أو الى انشاء المجمع اللغوى أو غير ذلك من منشآت الأبهة التى ينفق عليها من أموال الدولة

الفلاحون

وقد سارعت الوزارة إلى التخفيف من اعباء الفلاحين بالغاء ضريبة الخفر . وهى الضريبة التى

كانت مثارا للخلاف بين الفلاحين وسببا للانتقام منهم . كما ألغت أيضا السخرة وهى العار الذي بقى الى أيامنا من عصر الأتراك . وكان المستبدون يطربون لبقائه وربما يرجون التوسم فيه . وقدوعدت الوزارة باعادة النظر فى الديون العقارية التى لايزال المزارعون عاجزين عن سدادها كما انها ستخفض سعر الفائدة للديون عامة . وهـذا كله يتفق وما ينتظره الجمهور من رجال الوفد الذين أثبت الاختبار انهم أخلص السياسيين نية فى خدمة الوطن وأثبتهم على المبادىء السامية التى يدعون اليها والوفد هو فى الحقيقة حزب الفلاحين . ولذلك نعتقد ان هؤلاء محقون فيما ينتظرونه من خير على يد الوزارة الحاضرة . ونظن انه بدلا من انشاء القري الانموذجية يمكن الوزارة أن تخفض الضرائب إلى النصف حتى تترقى حال الفلاحين الاقتصادية ثم يتبع ذلك ترقيتهم الاجتماعية . ويمكن سن قوانين يجبر بها كل مالك على أن يبنى منازل صحية للعمال الذين يعملون فى زراعته . وهو بالطبع عاجز الآن عن ذلك لتراكم الديون عليه بعد ست سنوات من الارهاق الذى لا تخالطه رحمة فاذا أعفى من نصف الضرائب جاز للحكومة أن تطالبه ببناء منازل حسنة لعماله

غرس الديمقراطية

والوفد هيئة ديمقراطية . ومن حقه بل واجبه أن يغرس مبادىء الديمقراطية فى نفوس الشعب حتى يمنع المستبدين فى المستقبل من الوثوب إلى الحكم . ولهذا يجب ان يتعلم الجمهور طرق الحكم النيابى فى البرلمانات الصغيرة أى المجلس القروي والمجلس البلدى ومجلس المديرية . ويجب أيضا أن يكون العمدة منتخبا وأن يؤسس — على حساب الحكومة — منزل رسمى للعمدة فى كل قرية يكون نواة للحياة المدنية . كما يجب نشر الدعاية الديمقراطية فى كتب القراءة الابتدائية فى المدارس واستغلال الرديو والسينما لهذه الدعاية . ونظن أيضا ان من العدل أن تخفض المخصصات للأسرة المالكة إلى حد يتلاءم وموارد الدولة . وكذلك الحال فى المفوضيات وفى مرتبات الموظفين الكبار الذين يكادون يستهلكون نصف الميزانية . وهذه المرتبات الضخمة تغرى الموظف الكبير بالاستبداد . وقد رأينا فى سنة ١٩٣٠ أن اسماعيل صدقى باشا مع انه خفض المرتبات عامة قد زاد مرتبات رجال الادارة وأعلن للجمهور أن هذه ارادة الملك الراحل . وقد كان هؤلاء الرجال طوع ارادته فى تنفيذ خطط الاستبداد

ومما يساعد على تأييد الروح الديمقراطى أيضا أن نسلم بحقوق العمال . وقد أعلنت الوزارة انها ستعترف قريبا بالنقابات . والنقابة هى النواة لتنظيم العمال ولكل اصلاح اجتماعى

والوفد فى دعايته الديمقراطية انما يدعو للحرية والنظام والنور . وهو بذلك يكافح الظلام المظلمين ويمنع السفلة من أن يعلوا بأرذالهم على رجال الفضل والفضيلة

المعاهدة

نرجو أن يكون مايقال عن عقبات تثار بين المفاوضين لعقد معاهدة بيننا وبين بريطانيا غير صحيح . لانه إذا كانت المعاهدة ضرورية قبل ست أو عشر سنوات فهي الآن أكثر ضرورة عائة ضعف . وذلك للتوحش الذى رأيناه من الغزوة الايطالية للحبشة . بل هذه المعاهدة كان يجب أن تكون الرد العاجل الواضح لهذه الغزوة حتى يدرك المجانين فى رومة أن الامبراطورية الرومانية لن تعود بعد الفى سنة من وفاتها . وأن الدنيا عند العقلاء تسير الى الامام ولا تسير إلى الوراء الا عند المجانين

وهذه المعاهدة لاتضمن لنا الامان من غزوة ايطالية لاشك فى وقوعها أقل شك إذا نحن انفردنا بالاستقلال ولم نعتمد على قوة الاسطول البريطانى بل هى ايضا تكفل لنا السكينة واخضاع المستبدين داخل بلادنا . وبذلك نستطيع أن نرصد جهودنا للاصلاح الصحى والاجتماعى والاقتصادى ، هذا الاصلاح الذى تتمتع به جميع الامم الحية دوننا

اكتساح الحبشة

نجح الايطاليون فى اكتساح الحبشة بشيئين :

الأول : أنهم رشوا الرءوس بالذهب مع أنهم فى أشد الحاجة اليه فى ايطاليا وربما يؤدى خلو بنوكهم منه الى الافلاس القريب

والثانى : أنهم أطلقوا الغازات القاتلة على الاحباش مع أنهم ارتبطوا سنة ١٩٢٥ بمعاهدة تنص على ألا تستعمل الغازات فى الحروب

وهم الآن يجوبون أنحاء البلاد ولايجدون أية مقاومة من الاحباش . ولكنهم الآن أكثر هموما مما كانوا مدة القتال . فان العطل يزداد فى ايطاليا ولو عاد الجيش الذى انتهى من القتال لازداد العطل . وموسولينى يكابر فى الاثر السىء الذى أحدثته الجزاءات ولكن الارقام تكذبه . واذا استمرت هذه الجزاءات سنة أخرى لانتهت باحداث ثورة يكون فيها القضاء على جميع الذين اشتركوا فى إحداث هذه الحرب . وقد ربح الاشتراكيون والراديكاليون والشيوعيون الانتخابات فى فرنسا . وسيؤلف المسيو بلوم الوزارة الجديدة . وهو رجل مثقف لايعرف هذر البلاغة والفصاحة الذى يعرفه موسولينى ولذلك فانه سيثابر على الجزاءات وستكون فرنسا وبريطانيا على رأى واحد فى العصبة . وهو مقاطعة ايطاليا حتى تخضع للعصبة

وسيجتمع مجلس العصبة يوم ١٦ من هذا الشهر . ومن الآن نرى أن ايطاليا قد شرعت تحس بفداحة الكارثة التى تنتظرها . وسفيرها فى لندن يحاول مصالحة الانجليز فلا يجد غير الرد الجافى

ومن أضاحيك الايطاليين أنهم يحاولون طمأنينتنا نحن المصريين وأنهم لا يضمرون لنا شراً ولكن الدولة التى تنقض تعهداتها لعصبة الأمم وتنقض تعهداتها بشأن الحرب بالغازات لا يمكن أن تنتظر منا الغفلة والتصديق بوعودها

فلسطين

توالت الاضطرابات فى فلسطين طول الشهر الماضى تقريباً . وهى قائمة على نفور العرب من الاستعمار الصهيونى هذا الاستعمار الذي يناقض الكرامة الوطنية كما يناقض روح العصر . وقد قتل الى الآن نحو خمسين وجرح نحو ٣٠٠ والعرب مصرون على استخلاص وطنهم من هذه الغزوة اليهودية . ولا يمكن العرب أن يتقيدوا بما يدعيه اليهود من وعد بلفور

بل نحن المصريين يجب أن نخشى هذا الاستعمار الصهيونى إذ ليس بعيداً أن يفيض على مصر بل لقد اشيع قبل سنوات أن اليهود ينوون شراء مزارع فى شمال الدلتا . وهذا ما يجب الاحتراس منه

ونحن نعتقد أن الحنكة البريطانية فى الاستعمار ستنتهى بالمندوب السامى فى فلسطين الى الوصول الى حل يرضى العرب ويصون كرامة استقلالهم . ومن المحال أن يطمئن العرب ويسكنوا الى هذا المد اليهودى الذى لا ينحسر

اللورد اللينبي

توفى فى الشهر الماضى اللورد اللينبي الذى كان مندوبا ساميا فى مصر الى سنة ١٩٢٥ . واليه يعزى الفضل سنة ١٩٢٢ فى اعلان استقلال مصر . فانه طلب من حكومته قبول هذا الاستقلال فلما وجد منها تلكؤا هدد بالاستقالة فنزلت الحكومة على رأيه لأنها حسبت أن مثل هذه الاستقالة سيعقبها جدال طويل جرىء فى البرلمان البريطانى

ومع أن اللينبي كان مارشالا وقد عاش طول عمره وهو يمارس الحروب فانه قبل وفاته بنحو أسبوعين القى خطبة فى جامعة ادنبرج حمل فيها على الوطنية وقال انها السبب للحروب وأن الخطة المثلى لكل انسان هى العالمية أى الايمان بالعالم دون الوطن

وهذا كثير من قائد عظيم من قواد العالم !

هموم الكنيسة القبطية

ليس الآن بين شباب الاقباط المستنيرين من لايعرف أن خمسمائة والف قبطى تركوا ديانتهم فى العام الماضى . وهو ينظر الى هذه الارقام بعين القلق لانها تعنى الانقراض . ويزيد هذا القلق بظروف أخرى ربما تكون المسألة الحبشية أقلها قيمة . فان هذا القطر العظيم كان منذ أكثر من ١٨٠٠ سنة تابعاً للكنيسة القبطية التى تمثل هناك بمطران قبطى يرأس الكنيسة الحبشية ولكن استيلاء ايطاليا على هذا القطر وضع هذه الرياسة الآن موضع الشك . وقد لا يطول الزمن حتى تتمكن روما من نشر سيادتها الدينية فوق سيادتها السياسية . ولكن هذه المسألة هى — كما قلنا — أقل المسائل الكنسية الماثلة قيمة . لان الاقباط الذين يجدون كنيستهم فى حال من التأخر لا يقف عند حد بل يستمر ويزداد لا يسعهم أن يفكروا كثيراً فى الحبشة وهم يجدون ان تأخر الكنيسة فى مصر يجب أن يستغرق كل تفكيرهم

والواقع أن هذا التأخر كبير . وقد أدى الى نفور الشبان بل أحيانا الشيوخ من الكنيسة . وهذا النفور لم ينشأ فجأة بحادث خاص بل نشأ بقوة التراكم . وقبل نحو ثلاثين سنة كانت العقدة البارزة بين الكنيسة ورجال الطائفة هى عقدة الاوقاف وهى لاتزال احدى العقد القائمة ولكنها ليست الاولى . فان الشباب القبطى يجد نفسه أزاء كنيسة قد انقطع فيها التجديد منذ القرن الرابع للميلاد وهو عند مايحضر للصلاة يسمع أسماء المطارنة والصالحين من هذا القرن وما سبقه ولا يسمع أسما واحداً بعده . كأن الكنيسة كانت ميتة مدة ١٥٠٠ سنة . ثم هذه الكنيسة نفسها على ما تملك من قوة مالية كبيرة تعتمد على المرسلين الامريكيين والفرنسيين لترجمة الانجيل والتوارة الى اللغه العربيه ولا تريد أن تنفق مليما واحدا من خزانتها على ترجمة تلائم الذوق المصري. وهذا الى أن القسيسين لايزالون يعينون من غير المتعلمين بلا امتحان . وأحيانا يجردون من رتبهم الدينية بلا محاكمة . ففى شبرا مثلا قسيس معروف هو الاب سرجيوس جرد من رتبته ثم أعيد إلى الكنيسة ثم جرد ثانية بلا محاكمة . وقبل أيام طلب ثمانية من الرهبان والقسيسين فى أحد الديورة انشاء مكتبة ومدرسة فوافق البطريرك على هذا الطلب وبعث بخطاب لرئيس الدير يزكية . ثم لم تمض ثلاثة أيام حتى جرد هؤلاء الثمانية من رتبتهم وجردوا بلا محاكمة أيضا .ومن المعروف أن البطريرك الحاضر قد عين لمنصبه السامى بطريقة لم تتبع من قبله فى تعين البطريركين

ويذكر الشبان بل الشيوخ الاقباط هذه الشئون بالمضض . وأحيانا يدفعهم اليأس إلى أن يفوهوا بألفاظ قد تعود بالضرر على الوطن كله . وهم يتساءلون اذا كان الازهر يبعث برجاله إلى أوربا لكى يتعلموا فلماذا لاتبعث الكنيسة القبطية برجالها أيضا إلى أوربا ؟ بل لماذا لاتنظم الكنيسة بحيث يصبح من السهل تجديدها ودفعها إلى الأمام.

ثلاثة رجال وثلاثة مبادئ

لسلامة موسى

كاجاوا ومكافحة الفقر

تحدثت الصحف الامريكية كثيرا منذ أشهر عن رجل يابانى يعد من زعماء الاصلاح الاجتماعى فى اليابان . وهذا اليابانى يسمى كاجاوا . وهو مسيحى من أولئك المسيحيين الجدد فى اليابان وهم الذين تركوا إحدى الديانتين المعروفتين فى اليابان : البوذية أو الشنتوئية واعتنقوا الديانة المسيحية على أيدى المبشرين

ولهذا الزعيم آراء فى الديانة المسيحية لعلها تخالف فى كثير آراء المسيحيين فى العالم الغربى ولسنا هنا بصدد مناقشتها ولكنا نذكر فى هذه العجالة ترجمة هذا الرجل ونظرته الاصلاحية لليابان . فانه ولد قبل سبع وأربعين عاما من اب نبيل وأم سرية . والسرارى فى اليابان والصين كثيرات وهن يزاحمن الزوجات . وقد مات أبواه وهو طفل فكابد الفقر بل الحرمان احيانا . فانه يذكر من طفولته أنه حينمات أبواه حمل الى زوجة أبيه فاستقبلته بقولها : أنت ابن عدوتى

وفى هذا الوسط نشأ كاجاوا وتعلم فى إحدى المدارس الاجنبية ثم رحل الى الولايات المتحدة حيث تخرج من جامعة برنستون . وقد كابد بعد ذلك من الفقر آلاما لاتزال آثارها واضحة فى جسمه . فانه كان يساكن الشحاذين واللصوص . وقد انتقلت اليه منهم عدوى السل فى صدره كما انتقل اليه مرض التراخوما فى عينه . وكاد المرض الاول يفقده حياته كما كاد المرض الثانى يفقده عينه . وقد اعتدى عليه أحد اللصوص الذين عاشروه فثرم أسنانه الامامية . وعجيب حقا أن يعيش انسان فى هذا الوسط ويخرج منه مع ذلك ليس سليم الاخلاق فقط بل ساميا مصلحا يثابر على البر

وتنحصر الاصلاحات التى دعا اليها كاجاوا فى رفع شأن العمال ومكافحة الفقر الذى يعم الطبقة الدنيا فى اليابان على الرغم من الثراء الفاحش الذى يتمتع به أصحاب المصانع . وكأن ذلك الفقر الذى رزىء به فى صباه جعله يعطف على جميع الفقراء . وهو كما كافحه فى صباه من أجل نفسه أصبح يكافحه فى رجولته من أجل الامة كلها

أما سبيل المكافحة فتكاد تنحصر فى إنشاء الجمعيات التعاونية . فانه رأى أن الفقر يمكن أن تخف لذعته اذا الغى التاجر الذي يتوسط بين المنتج والمستهلك لانه بتوسطه يجعل أثمان الحاجيات غالية فلا يحصل الفقير عليها . ولذلك أنشأ كاجاوا آلافا من الجمعيات التعاونية التى تشترى بضائعها رأسا من المصانع وتبيعها للعمال . والفرق أو الربح الذى كان يحصل عليه التاجر الوسيط يصبح بهذه الطريقة ربحا خالصا للعامل نفسه . وإنشاء جمعيات التعاون لايلقى معارضة من أحد لأن المصانع والحكومة تؤيدها . ويكفى القارىء أن يعرف أن كاجاوا بدير الآن فى اليابان نحو مائة مدرسة تعلم الفلاحين والعمال التعاون بانواعه المختلفة . وهناك جمعيات تعاونية بعضها قائم للبيع ، وبعض آخر لأقراض العمال حاجاتهم من المال وقت الضيق أو لغير ذلك من الاغراض ، وبعضها لتربية الدجاج وبعضها للنحالة وبعضها للخدمة الطبية وبعضها للصناعات اليدوية الخ

وقد اشترى كاجاوا فدانا واحداً أنشأ عليه عزبة تعاونية . وهو يقوم فى هذه العزبة بأعمال كثيرة جـدا تشبه ماسبق أن ذكرناه باسم الزراعة الدقيقة . وقد أنشئت العزبة بالبيض إذ فرض على كل عضو أن يرسل كل يوم أربع بيضات . وهذا هو المورد الذى اعتمد عليه كاجاوا فى نحو عشرين من الاعمال التعاونية التى يقوم بها فى هذه العزبة

وهو بالطبع ديمقراطى النزعة . وقد كافح كثيرا لانالة العمال حقوق الانتخاب كما أنه دعا إلى هدم الأحياء القديمة فى توكيو وغيرها من المدن الكبيرة وإقامة المبانى الجديدة فى مكانها . وقد اقتنعت الحكومة بفائدة هذه الدعوة وعملت بها فارصدت عشرين مليون ين لهذا الهدم والبناء وطلبت من كاجاوا ان يشرف على العمل بمرتب قدره ١٨٠٠ جنيه فى العام . وقد قبل كاجاوا العمل ولكنه رفض المرتب لانه رجل يقنع بالقليل ويعيش فى كوخ وهو ساذج فى طعامه وشرابه . وهو هنا يشبه غاندى

وهو اكبر داعية للسلم فى اليابان . ومع أن للحزب الحربى سلطانا كبيرا على شؤون الدولة وله قوة الارهاب فانه يتوقى كاجاوا لأن لهذا سلطانا آخر على الجمهور . ولذلك لايفتأ كاجاوا يستنكر الخطط الحربية والدعوة الى التوسع الامبراطورى ولايبالى العسكريين

هذه هى حياة مصلح يابانى يحاول أن يغنى الفقراء ويردعنهم عوادى الفقر . فلتكن لنا منه عبرة

هافلوك اليس والحرية الذهنية

قليل أولئك الأدباء الذين يجمعون بين العلم والأدب فلا يتطوح خيالهم إلى مايتجاوز الممكن وهم فى الوقت نفسه لايقتصرون على الواقع فتعمى عقولهم عن الرؤيا

ومن هؤلاء الأدباء العلماء هافلوك اليس الذى عاش عمرا طويلا رأى فيه من الهزائم والانتصارات ماقل أن يتفق مثله لأديب آخر . فقد مضى عليه اكثر من أربعين سنة وهو يؤلف فى موضوعات مختلفة ولكن مع الاخصاء فى موضوع واحد هو الثقافة الجنسية . فانه رأى قبل أن يرى غيره أن الموضوعات الجنسية يجب أن تدرس كما يدرس أى موضوع آخر وأن الحب بين الرجال والنساء يجب أن ينزع من أيدي الأدباء والهواة الذين يؤلفون عنه القصص الغرامية ويسلم لأيدى العلماء لكى يبرزوا حقائقه ويتساموا بها الى المكانة الانسانية التى تسامت اليها سائر العواطف أو معظمها

وقد حدث حوالي سنة ١٨٩٨ أن أخرج أحد الناشرين كتابا لهذا المؤلف هافلوك اليس فى لندن عن هذا الموضوع . وكان هو أول كاتب تناول الحب والغلمة والشذوذ الجنسى ومايتعلق بها بالشرح وأحيانا بالرسم . ومع أنه أديب موهوب بعيد عن الفظاظة والفجاجة فان النائب العام فى انجلترا طلب مصادرة الكتاب . ولما وقف الناشر أمام القاضى قال هذا له :

« انى أعتقد أنك طبعت ونشرت هذا الكتاب وأنت حسن النية تحسب أن مافيه من العلوم ولكنى أقول لك أنه ليس فيه غير القحة والعهر والدنس . وسأعفو عنك هذه المرة ولكن اذا عدت إلى تمثيل هذه الجريمة مرة أخرى فانى لن أعفو عنك وستجد الغرامة الثقيلة والحبس الطويل »

وقد حدث هذا سنة ١٨٩٨ فى لندن ولم يكن المؤلف فى ذلك الوقت فى تلك المدينة . ولو كان لما نجا فى أغلب الظن من العقوبة . ولكن حدث بعد ٢٢ سنة تقريبا أى حوالى سنة ١٩٢٠ وفى مدينة أخرى هى نيويورك أن عرضت مثل هذه القضية على قاض . فان كتابا جديدا فى الثقافة الجنسية نشرته الدكتورة ماري ستوبس فى هذا الموضوع وطلب النائب العام مصادرته أيضا وقرأ القاضى الكتاب ثم قال فى المحكمة :

« إنى قرأت هذا الموضوع ، وإذا جاز لى أن أقيس ماورد فيه بالمقياس الذي أستنبطه من مؤلفات هافلوك اليس فانى أصرح بانى لا أجد فيه مايخالف الاخلاق الحسنة »

وهكذا أصبح هافلوس اليس بعد عشرين سنة من الحكم عليه بالقحة والعهر مقياسا يقيس به قاض آخر الاخلاق الفاضلة كأنه هو الدستور الذى يجب أن يدرس ويعرف لكى لايخطىء من يتولى النقد والعقاب من القضاة فضلا عن الجمهور

وهذه الحادثة وحدها تدلنا على أن الذهن البشرى أقدس شىء فى وجودنا هذا الارضى وليس فوقه شىء . وأن الاستبداد قد ينتهى بان تعيش العقول فى حجاب لاتعرف فيه حرية الذهن وابتكار التفكير

والآن هذه الثقافة الجنسية التي شتم من أجلها هافلوك اليس قبل نحو أربعين سنة في قاعة المحكمة أصبحت من الضروريات في التعليم وأصبحنا نرى فيها الموسوعات الضخمة . ويذكر الذين رأوا فلم الحياة الذي عرضته الجامعة الامريكية كيف أن هذه الثقافة تنير وتفتح الذهن وتسمو بالانسان

إني أعرف أن هذه الثقافة قد أسيء اليها ببعض أطباء تجار في مصر . ولكن يجب ألا يحكم عليها بمثل هذه المؤلفات الفجة . وسيأتي اليوم الذي يجد فيه شبابنا مثل هذه المؤلفات المنيرة التي ألفها هافلوك اليس لنشر النور والعرفان . فان الشاب المراهق كالزوج والاعزب والكهل يحتاجون جميعهم إلى التنوير في هذا الموضوع حتى يعرفوا كيف يعالجون هذه الغريزة الجنسية

موسوليني ومذهب الحرب

يمثل موسوليني مجموعة من المبادىء أهمها الدعوة إلى الحرب في عصر يطلب فيه الناس السلم . بل في عصر أصبحت فيه الحرب ليست خطراً على الناس بافنائهم بل هي أيضا خطر على الحضارة القائمة . وهو لكي يصل إلى إيجاد جيل جديد يحب الحرب ويكره السلم يضع المدارس الايطالية في قبضته وخاصة تلك المدارس الابتدائية حيث تنقش المبادىء الجديدة في أذهان الصغار وتنمو معهم فتثمر الثمرة المطلوبة وهي الحرب

ونحن هنا نصف بعض الكتب التي يعلم فيها الصبيان مبادىء القراءة . وقد عني موسوليني بهذه الكتب عناية كبيرة لأن جميع أبناء الامة من الجيل الجديد يدخلون المدارس ويقضون فيها ثلاث سنوات أو أربعا على الأقل قبل أن يتركوها

وقد ألفت ثلاثة كتب للقراءة . وهي تحتوي ٤٦ صفحة تتعلق بالنوادر الشخصية التي يلتذها الصبيان عن موسوليني و٢٦ صفحة عن المبادىء الفاشية و٩٠ صفحة عن الحروب ووصفها وغاياتها واصلها وآلاتها وحياة الجندي في الخنادق وعلى الطائرات وخلف المدافع . وفي هذه الكتب الثلاثة خمس صور للزعيم أي موسوليني و٣١ صورة تصف الشكة الفاشية المختلفة مع الرموز الفاشية و ٣٦ صورة للبنادق . وفي الكتاب الثالث ١١ خارطة لايطاليا وليس بينها خارطة واحدة للعالم كأن الاقطار الاجنبية ليست على الارض وكأن الدنيا كلها هي ايطاليا

والكتاب الأول يحتوي كلمات خفيفة قليلة الحروف ومع كل كلمة صورة ، وعلى الصبي الذي لا يزيد عمره هنا على ٦ سنوات أو ٧ أن يكتب الكلمة التي تؤدي معنى العسكري وأن يؤلف جملة تعني أننا « كلنا عساكر صغار للزعيم » وفي هذا الكتاب صورة قد وقف فيها موسوليني وهو

يحمل طفلا وتحت الصورة هذه الكلمات « بنيتو موسوليني يحب الاطفال الصغار والاطفال يحبون الزعيم . ليحى الزعيم . سلام على الزعيم » وفى الصفحة المقابلة صلاة يقول فيها الصبي « الصبيان الايطاليون يرفعون أعينهم الى السماء كل يوم بالدعاء للزعيم »

أما الكتاب الثانى ففيه طائفة من النوادر عن موسوليني . وهنا فصل خلاصته أن الواجب الاول والثانى والثالث للصبي هو الطاعة

أما الكتاب الثالث فيحتوى ٧٢ صفحة عن الدين . والفاشية الايطالية تعنى كثيراً بالدين لأنه يحض على الطاعة . ويحتوى أيضا على ١١٦ صفحة فى الحساب والجغرافيا و٩٧ صفحة عن الحرب ، وهنا ذكر لأبطال ايطاليا مثل ماتسيني وجاريبالدى ولكن مبادئهما الجمهورية والديموقراطية لاتذكر لأنها تناقض المبادىء الفاشية . ومما يحتويه هذا الكتاب خلاصة تاريخية للحرب الكبرى بها ٢٥ صفحة تصف ماقامت به ايطاليا أما سائر الامم التى اشتركت فى هذه الحرب فلا تنال اكثر من صفحة . وفى هذه الخلاصة هذه الجملة « فى سنة ١٩١٨ أجبرت ايطاليا النمسا على طلب الصلح ثم انتهت الحرب الكبرى » وهذه الجملة « فى هذه المدرسة مدرسة الشجاعة والنظام أثبت شعبنا أنه جدير بأسلافه الرومانيين الذين كانوا حكاما على العالم »

وهذه النظرة القصيرة للكتب الابتدائية التى تدرس للصغار تدل القارىء على أن موسوليني يستخدم التعليم للدعاية الفاشية وأنه يغرس فى صغار ايطاليا مذهب الحرب ليؤمنوا به كما يؤمن المتدين بدينه

ادولف هتلر والحكومة الالمانية

بقلم الكاتب الانجليزى جيمس مورفى

فى ٥ مارس من سنة ١٩٣٣ جرت الانتخابات العامة فى المانيا . فكانت نتيجتها احداث ثورة على النظم الدستورية فى شئون البلاد الداخلية وفى علاقاتها الخارجية . وبذلك اندمجت فى عالم الفناء الجمهورية الالمانية التى خرجت الى حيز الوجود منذ سقوط امبراطورية « هوهنزولرن » سنة ١٩١٨ وحلت محلها ما يسمونها الامبراطورية الثالثة بيد أنها امبراطورية بلا امبراطور وستبقى كذلك ماظلت القوات الثورية التى جاءت بها الى الوجود قديرة على الاشراف عليها وتولي شئونها

ولم يكن من معانى تلك الثورة اعادة الماضى الزائل الى نصابه القديم . اذ ليس فى برنامجها اعادة اسرة « هوهنزولرن » الى العرش

والرجل الذى نظم وقاد الحركة التى تولدت عنها هذا الانقلاب السياسى هو جندى نمسوى سابق برتبة « كوربورال » اسمه « ادولف هتلر » . ولم يكتسب حق الرعوية الالمانية الا فى سنة ١٩٣٢ فقط . وبعد عام واحد اختير ليكون مستشاراً لالمانيا

وعند افتتاح الفصل البرلمانى الجديد صودق على لائحة باغلبية ٤٤١ صوتا ضد ٩٤ تمنح ذلك النمسوى السابق السلطة المطلقة لمدة اربع سنوات مقبلة . وبمقتضى هذه اللائحة يستطيع أن يغير ويبدل فى الدستور الالمانى كما تشاء ارادته . اذ انها تنص صراحة على تمكينه من وضع والغاء القوانين من غير حاجة الى موافقة البرلمان . بل فى استطاعته تنفيذ الميزانية وعقد القروض والمعاهدات بدون استشارة هذا البرلمان

وبذلك أصبح هذا المستشار الديكتاتور مخولا سلطة تشريعية اوسع نطاقا بكثير عما كان يحلم بسمارك ان يكون له . بل أن نفوذه ابعد مدى من اى مناظر له من الديكتاتوريين العصريين حتى الايطالي منهم . ومن الواجب علينا أن لا ننسى أنه بلغ هذه المكانة بطريقة دستورية محضة وانها لنتيجة جهاد عنيف دام أربعة عشر عاما فى حملات دستورية مابين صعود وهبوط . شرقا وغربا فى طول البلاد مع عرضها بنظام دقيق تحفه العناية . فمن نشرات وكراسات مطبوعة توزع

بالالوف بل بالملايين . وخطب متدفقة متواصلة فى اجتماعات سياسية ضخمة حاشدة . مما لم يشهد الالمانيون مثله من قبل

وكانت النتيجة الختامية لذلك كله هو حمل الناخب على موافقته الحرة الرسمية على تلك الحركة الثورية

وبعد الانتخابات العامة باسابيع ثلاثة صودق على القرار العام باعتماد الثورة المذكورة باغلبية ثلاثة أرباع الاعضاء البرلمانيين وبهذا اصبح « ادولف هتلر » مستشاراً وديكتاتورا فى آن واحد وهذا هو الذى جعل جهوده وحيدة فى بابها لامثيل لنتيجتها

وفى خلال التسعة الاشهر الاولى التى اعقبت توطيد الديكتاتورية على قواعد ثابتة صدرت سلسلة من الاجراءات التشريعية واخرجت الى حيز التنفيذ . فغيرت الجوهر الصميم فى كلتا الناحيتين الاجتماعية والسياسية من الحياة الالمانية

ومن المتعذر أن نوضح للقراء خارج المانيا ماذا حدث هناك اذ ليس لهم حنكة الاستعداد العقلى الذى ظل سائدا المانيا نيفا ونصف قرن من السنين . بل فى الحقيقة منذ أن أصبحت فلسفة « هيجل » ذائعة هناك عامة

وبديهى أن مايسمي « الحكومة الكلية » فى المانيا ليس له أى معنى لدى الشعوب الاخرى على حين أن له فيها معنى دقيقا جدا . وهذا النوع من الحكومات قائم هناك اليوم . والاكثر أهمية من مظاهره البارزة هو مايلى :

الحزب الوطنى الاشتراكى الذى أسسه وتولى زعامته « هتلر » نفسه لم يعد اليوم حزبا سياسيا ولكنه انقلب فصار الحكومة نفسها بعد القضاء على الحكومة البرلمانية . وبعد أن أبيدت جميع الاحزاب السياسية من عالم الوجود . وذلك اما بانحلالها او باندماجها فى الحكومة الاشتراكية الوطنية . بل ان جميع الهيئات والجمعيات العامة التى كانت أغراضها السياسية غير مباشرة البتة قد تحولت الى هيئات عضوية فى تلك الحكومة الاجمالية . وبذلك اختفى الحزب الديموقراطى الاشتراكى الشيوعي . ونقابات العمال المسيحية الاشتراكية . وحلت محلها هيئات أو فرق حكومية أستولت على أموالها واصطبغت بعضويتها . وتقلدت اعنة ادارتها

وهكذا انشئت الهيئات والفرق تحت اشراف الحكومة لكل مهنة أو أى عمل بحيث لايستطيع فرد خاص أيا كان ان يزاول أى مهنة بدون تبعيته للغرفة الحكومية الخاصة بها . وهذه الحالة

تتشابه كل الشبه مع نظم الحكومة التعاونيه فى ايطاليا

حتى الآلة القومية للتجارة والصناعة قد وضعت تحت اشراف رقابة الحكومة . كما أن المؤسسات الادبية العامة والمنشئات الصحية العامة قد أصبحت فروعا حكومية ايضا

وأزيد من هذا أن المسارح ودور السينما ومعاهد الطباعة والصحافة قد جردت من جميع المواد التى تجعلها تتجه الى نزعات الاسفاف والانحطاط وطهرت من ادرانها جميع البؤر الخفية فى مختلف المدن . ووضعت انظمة للسياسة الصحية القومية سرعان ما نفذت وعمل بها حتى ان الرجال والنساء الالمانيين لايباح تناسل ذريتهم اذا اكتشف ان ثمة نقصا وراثيا او محتملا أن يصبح موروثا فى الاشخاص الذين سيكونون مصدرا للتناسل

هذا عدا أن كثيرا من التقاليد والاوهام قد نبذت بعد أن لبثت مأخوذا بها ازمنة طويلة وعقدت حكومة هتلر اتفاقا وديا مع الكنيسة الكاثوليكية . ووافقت فيه ثانيتهما على أن تنكب النشاط فى الميدان السياسى . وتمسكا بهذا التعهد انحل الحزب الكاثوليكى المركزى واندمج فى الحكومة الوطنيه الاشتراكية . وبهذا تلاشى عامل من أكثر العوامل السياسية البارزة اهمية فى الحياة الالمانية العامة منذ عهد بسمارك

وعلى أثر ذلك انقسمت الكنيسه البروتستانية فى المانيا الى نحو خمس وعشرين هيئة . وان كانت الآن قد اتحدت تحت نظام كنائسى واحد

هذه المعجزة معجزة التجمع الكلى العام للهيئات الالمانية على اختلافها قد أحدثها رجل واحد ومن عجب أنه تنبأ به وسبق فرسم خططه « ادولف هتلر » فى كتابه الذى وضعه لما أن كان نزيلا فى سجن المجرمين بمدينة « لاندسبرج » من أعمال بافاريا فى أثناء فصول الربيع والصيف والخريف من سنة ١٩٢٤

* * *

فمن هو « ادولف هتلر » هذا ؟ وكيف استطاع مزاولة مثل هذا العمل . واقتدر على ادراك ذلك الغرض ؟

وقبل كل شىء كيف تسنى لاجنبى من مملكة مجاورة ان يبرز الى هذه المكانة فجأة . وتصبح فى يده مقاليد الاشراف الاعلى على الشعب الالمانى العظيم . وثانيا كيف أتيح له أن يؤيده هذا الشعب تأييدا يلاصق جانبه ورهن ارادته ؟

ان هتلر لم يتسنم قبل ذلك أى منصب له أهمية عامة . اذ لم يصل الا الى رتبة « كور بورال » حين كان فى الجيش . بينما أن موسوليني قد رقى الى رتبة « سرجنت »

ولم يلتحق « هتلر » بأية مدرسة ابتدائية . واذا كان قد نال حظ الالتحاق بها فانه لم يثابر على دخولها يوميا بانتظام اذ كان وهوغلام مصابا بضعف فى رئتيه . وقضى والداه نحبهما حين كان فى السادسة عشر من عمره . وكان لزاما عليه ان يختار العيش لنفسه وهو في تلك السن . وهو اليوم فى الرابعة والاربعين من سنى حياته على حين أنه أحد عظماء الحاكمين على شعب من أعظم شعوب العالم العصرية وبديهى أن نفوذه على الشئون العالمية من المحتمل كثيرا جدا أنه تكون له خطورته وأهميته في وقته !!

فكيف يمكن وصف هذه المعجزة البارزة بين تلك الاعمال وضعا ينم عن اقتدار وذكاء ؟؟

ان كثيرا من مراسلى الصحف الاجنبية والكتاب الاجانب الذين ينحصر واجبهم فى احاطة الرأى العام علما بما جريات الحوادث السياسية قد اساءوا الى هتلر بان لقبوه أحمق وانه سوقى من الدهماء . وليس ثمة ريب فى أن هذا القول منهم هراء وخرافه . فان التدابير والوسائل التى اتخذها فى غضون الاثنتى عشرة سنة من الحملات السياسية هى بشكل وضوح وجلاء اكثر اقتدارا من تلك التى سلكها السياسيون القدماء . ولا جدال فى أن الحركة التى قادها « هتلر » قد تطابقت مع مطالب ومرامي الشعب وهى التى غفل عنها نظراؤه وتجاهلها منافسوه

والحقيقة التى أراها حيالى ناصعة هى أن « هتلر » أحد تلك المظاهر الطبيعية من صور القيادة الفطرية التى نجدها متوحدة التكوين فى رجال أمثال مصطفى كمال « الذي كان أبوه مثل والد هتلر موظفا صغيرا فى الجمرك » و « لينين » و « ستالين » و « موسوليني » و « مازاريك »

وهتلر مثل كل هؤلاء — منحدر من منبت متواضع . لقد كان والده موظفا فى الجمرك فى بلدة « براناو » القائمة على الحدود النمسوية . وهي على بعد ثمانين ميلا فى الشمال الشرقى من « ميونيخ » على الضفة الثانية من وادى « إن »

فى هذه البلدة ولد « هتلر » سنة ١٨٨٩ . وهى صغيرة لايتجاوز عدد سكانها الثلاثة الآلاف نسمة وليست لها أية شهرة كمحطة للسكة الحديدية . ولم يكن هتلر الكبير مكلفا بواجبات شاقة يتجشم عناء تأديتها . وان كان قد تعود أن يتحدث عن نفسه بتضخيم وفخامة من ناحية عمله بصفته حارس الحدود فى أمبراطورية هابسبورغ . ولكن وا أسفاه تلك أيام مضت سريعة ولم يشعر بانقضائهما أحد . ولم تبق منها إلا الذكرى !

لقد اعتاد حارس الجمارك النمسوية أن يحيي السائحين بجملته الرقيقة « جراس جوت » ثم يدعهم يمضون بعد ذلك . بل لقد كان يشق بكلمة أحدهم عن محتويات أمتعته . وكانت هذه هي نفس معاملته لمستوردي السلع التجارية . ولذلك ليس معقولا ان « هتلر » الصغير قد ورث غريزة الرغبة في السيطرة والسيادة عن أبيه !

بيد ان الوالد كان على بعض مميزات من الواضح انها تجلت في ولده . لقد كان محدثا كبيرا ورأسه محشوا بملاحظات ضخمة . وفضلا عن ذلك فقد كانت لديه فكرة معينة عن الاهمية العليا للحكومة . وان أعز رغباته مكانة في نفسه هي أن يصبح ولده موظفا حكوميا كبيرا

ولكن « هتلر » الصغير لم يوافق البتة على الفكرة الاخيرة بل لقد كان مفطورا على اتجاه فني في ذهنه . ولهذا كان يريد أن يكون مهندسا معماريا

لقد كانت ألمانيا في الناحية الاخري من الحدود . وطفق « هتلر » يحب الالمانيين أكثر من حبه لابناء وطنه وهو لا يزال في سن مبكرة من الحداثة . وقد بهرته أزياء البافاريين الرسمية في زرقة السماء . وكان يلوح له ان المظهر العام للموظفين الالمانيين يدل على الاقتدار العظيم أكثر منه في النمسويين اللينين البسطاء . ومما حدثنا به « هتلر » في كتابه الذى وضعه بعنوان « نضالي » نعلم أنه كان في حداثته على تأثر عظيم بكل ما يحيط به وأزيد من هذا انه كان يريد أن يكون في مكانته أسمى على كل من حواليه . ولذلك نعود أن عارس لعبه كابن ألماني . ولعل شطر من ذلك ترجع أسبابه إلى أنه هو نفسه لم يكن كله غسوى الدم . فقد كانت والدته من « بوهيميا » وكان أهالي بوهيميا منظورا اليهم بأنهم ليسوا خلصاء الدم النمسوى في تلك الايام الماضية المنصرمة أيام الامبراطور « فرانسيز جوزيف » . ولقد كانت المناقشات لانهاية لها في تلك البلاد النمسوية الالمانية الواقعة على الحدود بين المملكتين . وكلها مناقشات تدور حول مميزات الامبراطوريتين « هوهنزولرن » و « هابسبرج »

ولقد صار « هتلر » الصغير ألمانيا في كل شيء لانه ظن أن بذلك تسمو مكانته على كل من حواليه

وفي سن الثانية عشرة ألحق بالمدرسة الابتدائية في لينز وهي مدينة كبيرة على نهر الدانوب بل ثالثة المدن في النمسا من حيث الضخامة والعظمة بيد ان هتلر الصغير لم يكن على شغف كبير بالمدرسة فلم يثابر على منهج الدراسة باجتهاد وعكف على التصوير ومطالعة التاريخ بينما والده كان يعارضه في ميله الى كلا العلمين . فلم يكترث أدولف بهذه المعارضة ومضى في طريقه لا يلوى على شيء

وكان فى مدرسة « ليتز » مدرس للتاريخ هو الاستاذ « بيوتشيخ » وهو شديد التعصب لالمانيا والالمانيين الى الدرجة القصوى . فلقن هتلر الصغير تاريخ «الاسكندر الاكبر» و« سيبيو افريكانوس » و « شارلمان » و « فريدريك الكبير » ومن ثمة أصبح عابدا للبطولة . وكان جميع أبطاله قائمين على ميدان ألماني . وشهد بعد ذلك تمثيل رواية « وليم تل » على المسرح المحلى الذي كان ينفث سحره الوطنى بروح حارة

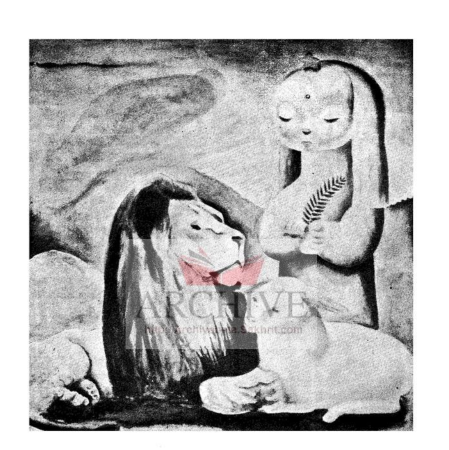
وأصبح هتلر بعد ذلك عابدا لانصاف الآلهة الالمانيين فى الدرامات الموسيقية التى وضعها « ريشارد وفاجنر »

وفجأة أصابت أسرته الصغيرة ضربة قاسية . فقد مات والد أدولف وبعد أزيد من عام بقليل رقدت والدته إلى جانب أبيه فى قبر واحد ولم يكن « هتلر » الصغير قد بلغ السادسة عشر من عمره . ولم تكن ثمة مندوحة عن بيع قطعة الارض الصغيرة التى كانت تمتلكها أسرة هتلر للوفاء ببعض الديون الصغيرة على الاسرة ولتسديد نفقات جنازة والدته

ومن بقايا ممتلكات الاسرة الضئيلة استطاع « أدولف » أن يستخلص لنفسه بضعة جنيهات قليلة وبهذا المبلغ الزهيد فى جيبه — وليس ما يقيه التضور جوعا غيره — وصل الى فينا عاصمة النمسا فى ذلك الوقت كان حكم « هابسبورج » لايزال فى عنفوان مجده وكانت فينا فى كثير من نواحيها أ كثر العواصم الاوربية مرحا وأشدها حرية ولم يكن النمسويون ينوءون تحت عبء الاحساس بمصير العالم — ذلك الشعور الذى ثقل بوطأته على الالمانيين . اذ كان الاولون على خلق جديد دمث الطباع ينطبق عليهم وصف « الجنتلمان » وكل مايريدون هو أن يحيوا حياتهم الخاصة . ويدعون غيرهم يفعل مثل ذلك . وان كان لديهم مايشغلهم من شئونهم الدولية أو سيادتهم القومية فهم يتحدثون عنه فى هدوء . ولا يصيحون به من أعلى أسطح منازلهم ولكن اذا احدثت مصادفة من الظروف ليظهروا فيها شعورهم من هذه الناحية فانهم كانوا يظهرونه عادة ضد البروسيين الذين كانوا يعتقدون انهم سيغمرون العالم فى لجج من المتاعب يوما ما

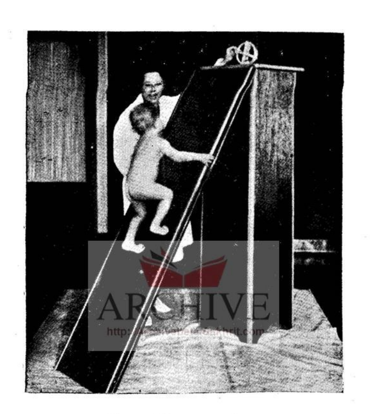
كل هذه العوامل زادت من حدة المعارضة فى روح المشايع لكل ماهو ألمانى ونجل جامع الضرائب فى « براناو » — ذلك هو « أدولف هتلر » فى صباه . والذى أحدث كل ما أسلفنا من معجزات الحوادث اليوم فى ألمانيا

من الانجليزية ترجمة عبد الحميد جلال



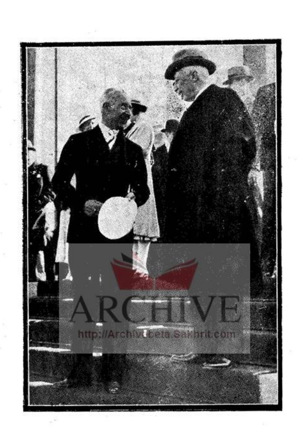
عصر السعادة — للرسام نارا

تخيل الرسام هنا عصرا سعيدا تعيش فيه الكائنات المتعادية وهى متحابة. وقد رسم اسدا وحملا وفتاة. وهم جميعهم فى سلام ووئام ليس بينهم من يخاف أو يخيف! وحبذا الخيال لولا بعده عن الحقيقة!



يفعل ذلك وعمره سنة ونصف فقط

فى الولايات المتحدة توأمان أحدهما ترك لكى يربى بالطرق المألوفة . والآخر سلم للدكتورة مرتل مجرو فشرعت فى تربيته منذ أن كان عمره عشرين يوما . ويرى هنا هذا التوأم الثانى مع الدكتورة مربيته وعمره ١٨ شهرا فقط . وهو يمكنه أن يعوم ويغوص فى الماء ويتسلق هذا المنحنى الاملس كما يتسلق الاشجار ويتزحلق على الثلج . أما أخوه فلا يستطيع شيئا من ذلك . وهذا يدل على مقدار ما تفعله التربية المنظمة اذا شرع فيها منذ الطفولة



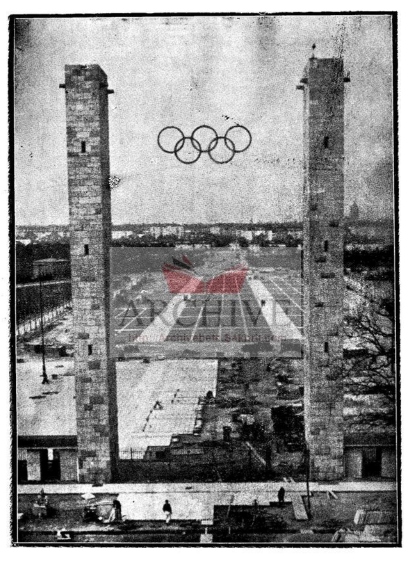
ولى عهد المانيا .

مع أن المانيا بعيدة كل البعد عن استعادة حكم العرش وآل هوهنزلرن فان الالمان لايزالون يكنون فى نفوسهم الاحترام والاجلال لاعضاء الاسرة التى تولت الحكم فى بلادهم قرونا عدة .
وترى هنا صورة ولى العهد فيلهلم ابن الامبراطور السابق باليسار وهو يحادث الامير يوجين شفيدن ولى عهد اسوج



روبرت اوين داعية التعاون

تنتشر حركة التعاون فى مصر انتشارا سريعا وهى تجد من الحكومة تأييدا قويا . ويشرف على هذه الحركة الدكتور ابراهيم رشاد . والمقصود من هذه الحركة أن يصل المستهلك الى المنتج فيقتصد الاثنان ربح التاجر الذي يأخذ من الاثنين . ومخترع هذه الحركة هو روبرت اوين الاقتصادى الانجليزى الذى ولد سنة ١٧٧١ وتوفى سنة ١٨٥٦ وهو الذى وضع لفظة سوشيالزم الانجليزية التى نترجمها ترجمة سيئة بلفظة الاشتراكيه . وقد قام بعدة محاولات فى انجلترا والولايات لاسعاد العمال والتدرج بهم الى أن يصبحوا المالكين للمصانع والمشرفين عليها . وقد خاب في محاولاته . ولكنه نجح فى فكرة التعاون التى انتشرت بعد وفاته ولا تزال في انتشار وازدياد الى أيامنا . وقد كان الاقتصادى المعروف جيرمى بنتام يشترك معه فى كثير من المحاولات الاجتماعية التى قصد بها الى اسعاد العمال

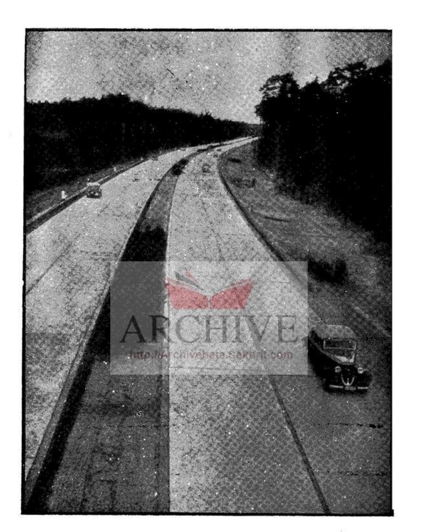


البوابة العظيمة التى اقامها الالمان على مدخل الاستاذ للالعاب الاولمبية التى تبدأ منذ أول أغسطس الى ١٦ منه هذا العام



هانز بورويك

من أعظم المشهورين فى المانيا بالمرانة الرياضيه فى العـدو والوثب وسيشترك فى الالعاب الاولمبيه بعد شهرين



طرق الاتومبيلات في المانيا

قامت المانيا بجهود الجبابرة لكى تربط أنحاء بلادها بطرق واسعة للاتومبيلات . ويرى هنا طريق هو فى الحقيقة طريقان يختلف اتجاه الاتومبيلات فيه حتى لا يمكن الاصطدام . وبين الطريقين فاصل عريض غرست فيه أشجار الزهر



السرح الوطني فى مونيخ

مهما صغرت المدينة فى المانيا فانها لابد لها من مسرح وطني ينفق عليه المجلس البلدى مقدارا كبيرا من المال لتأسيسه وأدارته . ويرى هنا مسرح من المسارح العظيمة في المانيـا فى مدينة مونتج وهو من أعظم المباني فى اوربا . وعناية الالمان بالدرامة قديم لانهم ينظرون الى التمثيل كما ينظرون الى التعليم سواء

وليام شكسبير

من ٢٣ ابريل ١٥٦٤
الى ٢٣ ابريل ١٦١٦

بقلم عبد الفتاح ابراهيم

شكسبير الرجل

الغريب أنه لم تمر غير قرون ثلاثة على وفاة شكسبير ومع ذلك فقليل ما وصل الى الناس عن حياته الخاصة .. ولهذا خرجت كل البحوث التى كتبت عن حياة شكسبير مليئة بصور وصفية لا إفاضة فيها ولا إطالة وان كان ما كتبه الانجليز بفردهم عن الشاعر الفذ آلاف المجلدات تحدثت كلها عن مآسيه وملهاته .. وأثره فى العصر الذى تبع وفاته .. كما جاء الكثير منها عن « الدرامة » ورجالها الذين سبقوا شكسبير والذين عاصروه .. واولئك الذين عملوا للمسرح بعده . ولكن فرداً واحداً لم يقف طويلاً بازاء شكسبير الرجل .. ذلك لان كل اولئك الذين كتبوا عن شكسبير اصطدموا بصعوبة واحدة هى عدم تفهم الحياة الهادئة التى عاش الرجل فيها طوال طفولته وشبابه .. هذه الفترة التى اعقبت عودته الى وطنه ليغمض عينيه الى الابد .. ونتجت هذه الصعوبة فى الواقع من تضارب الذين عاصروا شكسبير عندما توفروا على الكتابة عنه

ولهذا فان الصورة البسيطة الهادئة التى يضعها الباحث لحياة شكسبير لاتتفق مع تلك التى يخرج بها قارىء رواياته المسرحية ومنظوماته الشعرية .. ولهذا يجب علينا عند الحديث عن شكسبير أن ننظر اليه من ناحية مؤلفاته .. وأن نضع نصب أعيننا كلمة اسكن

« هذا رجل لاسبيل الى النظر اليه من الناحية التى نستطلع منها آثاره كشاعر فذ له أثره الاول ومكانته الخالدة لا فى الشعر الانجليزى وحسب بل فى الشعر العالمى »

* * *

ولد شكسبير فى مدينة ستراتفورد فى الثالث والعشرين من أبريل عام ١٥٦٤ ، وكان أبوه جون شكسبير سليل أسرة عاشت طويلا فى وسط انجلترة حياة ثراء وبسطة عيش ، وأمه مارى صغرى بنات روبرت اردن مزارع من ويلمكوت على مرمى سهم من ستراتفورد .. وكان جون عند ما جاء وليام الى الحياة يتجر بما تنتجه الارض من ثمار .. ولكن الرجل برغم هذا الكفاح الطويل الذى اعده لكل عمل لم يكن فى سعة من الرزق .. بل كان فى ضيق من العيش . برغم الخمسين من الافدنة وما يعلوها من الابنية التى جاءته بها مارى عند ما حملت اسمه



شكسبير

ولم ينجح الرجل فى عمل من أعماله .. وتتابع فشله فى جهوده حتى جاء وقت كان يستعين على الحياة بنقود يقترضها من ابنه وينفق منها على نفسه وأولاده

ومن المحتمل أن يكون شكسبير قد مضى أمد طفولته كما يقضيه كل من على شاكلته من ابناء التجار .. يقضى سحابة نهاره فى الدرس .. يقوم لاجله مع الفجر .. ويعود منه عند انسدال الظلام .. فاذا جاءت العطلة المدرسية انصرف الى الحقول والغابات لا يجهده العدو فى الغابات .. ولا عل دراسة الطبيعة فى مبعث وحيها الساحر

وهذه أقرب الصور المرسومة لطفولته صلة بالحقيقة .. فقد كان يطلب العلم فى مدرسة ستراتفورد وكان يشرف على تثقيفه بها مدرس له سمعة طيبة فى عمله هو السيد والتر روش ، ومع هذا لاندرى لم كانت المدرسة بغيضة لشكسبير وزملائه

كانت الدراسة تبدأ فى شهور الصيف عند السادسة ، ولذا كان شكسبير وزملاؤه يسيرون اليها مبكرين تصحبهم الاشعة المرتعدة الاولى التى تخاف حلكة الليل ، وكانت الشقة قريبة يسير

شكسبير طوالها فى طريق تظلله أشجار كثيفة تخفى وراءها الحقول باشجارها المزهرة .. ومع هذا كتب شاعرنا عن حياته المدرسية يقول . « وفي سروالاته الضيقة كان يحبو تحت أشعة الشمس المرتعدة كالحيوانات الزاحفة — على الرغم منه — فى طريقه الى المدرسة »

ولكن شكسبير برغم هاته الكراهية كان طالبا مجداً .. وكان والتر روش — كما كان سواه — يفخر باعداده .. ، ولكن الحقيقة ان شكسبير لم يتعلم شيئا من المدرسة كان له فى حياته أى أثر .. اللهم إلا اللاتينية التى درسها على السيد ولتر نفسه .. ، والتى صبغت كتاباته الأولى بمسحة خاصة . وكان مادرسه شكسبير بعد هذا يمكن أن يعتبر خليطا من علوم شتى . بعثت بالملل الى نفسه وروحه .. ، وكانت أكثر حقائقها خرافات .. ، بل كانت فى مجموعها نوعا من الأساطير التى تروى اليوم للتسلية .. ولعلك تعجب ولعلك تظننى أسرف فى هذا الحديث ... يقول ارثر مي عن هذا .. « وكانت العلوم التى خرج بها شكسبير من المدرسة لا يمكن أن تولد عبقرية وما بالك بصبى يدرس فى التاريخ الطبيعى الحرارة التى تتولد من سريان الدم فى الشرايين فيقال له .. وبرغم ان سريان الدم فى الشرايين يولد حرارة كبيرة فان دم الفيل مصحوب ببرودة شديدة على نقيض النظرية التى حدثناك بها .. ، ومن أجل هذه البرودة كان الفرسان فى القرون الغابرة لا يجدون مايخفف عنهم حرارة الصيف غير دماء الفيلة فيغتسلون بها .. »

وتدرك من هذه الفقرة التى نقلها ارثر مي عن كتاب كان شكسبير يدرس منه التاريخ الطبيعي طوال أيامه فى المدرسة ماذا كان شاعرنا يعرف عن الحياة خارج القرية .. مع أنه نشأ يحب الطبيعة .. يحيا فى الغابات والأمراج حتى أنه سيق يوماً إلي القاضي ليسأل عن ظبي قيل أنه قد اصطاده من غابات السير توماس لومى الحاكم

ودرس شكسبير عن السيد والتر روش أيضا طريقة الكتابة القديمة .. ولعلك لو شهدت امضاءه تسخر مما تعلمه فى كل هذه السنوات الست التى قضاها فى صحبة السيد .. ، وقرأ شكسبير شعر مانتيانس من شعراء فترة الانتقال كمقدمة لدراسة شعر فرجيل ، ودرس بعض الآداب والفلسفة الاغريقية .. ، وكانت الفرنسية كذلك بين العلوم التى درسها شكسبير ونجح فيها الى حد بعيد.. ويبدو لك هذا من الحوار الذى جاء بالفرنسية فى رواية هنرى الخامس

وكان شكسبير اذ ذاك قد حبا الى بداية عهد الشباب .. ، ولكنا لا نزال بعد فى غموض تتنكب الحديث عن هذا الامد تنكبنا عن استقصاء أمد طفولته ودراسته .. وبلغ الرابعة عشر

من سنى حياته . . ، وهذه السنة غيرت من أنموذج حياته . ، فقد بلغت الضائقة بأبيه أشدها . ، وأرغم على أن يستعين بفتاة على اقامة صرح داره فحال بينه وبين متابعة الدرس . . وبدأ به حياة العمل والكسب . . ولا نزال بعد فى دياجير الظلام فلا نعرف على وجه التأكيد العمل الذى بدأ به الشاعر الفذ حياة التكسب والكفاح

وقد زعم ارثر مي فى حديثه عنه أنه عمل عند قصاب . . وربما كان هذا حانوت أبيه .. وقال سواه ممن كتبوا عن شكسبير الشاب انه عمل فى فجر حياته عند رجل من رجال المحاماة . . ينقل له مسودات قضاياه . . ويلقى له زواره . . واستشهد أصحاب هذا الزعم بتلك الاساليب القانونية التي جاء بها شكسبير فى روايته « تاجر البندقية » ، وهذا الزعم برغم قلة أصحابه يلقى من نفسك ترحابا لانه شتان بين تجارة اللحوم وحرفة الادب ، وشاعرنا برغم البداية التى بدأ بها نشأ فنانا ذا شاعرية موهوبة

وكان شكسبير قليل الحنكة بأمور الحياة فلم يكد يصل الى التاسعة عشر من سنى حياته حتى انتهى الى المرأة التى تشاركه أجره القليل . . وفى نوفمبر من عام ١٥٨٢ تزوج ابنة مزارع ليس بالضيق الرزق ولا بالواسع الثروة . . ، كان علك حقلا قرب سترانفورد . . ، وكانت شمس ابنته قد حبت نحو الذروة وهي لاتزال عانساً . . ولقيت فى شكسبير غنية عن حياة العزلة المريرة في بيت أبيها ولم ترض هذه الزيجة فرداً واحدا هو أباه البائس فقد حرمته معونة ابنه الى حين

على أن حياتهما الزوجية لم تكن سعيدة . . كانا يسيران فى خطين متوازيين فلا يلتقيان ، وتجد صورة من هذه الحياة فى « الليلة الثانية عشرة » فى الفصل الثانى بالمنظر الرابع .. وكأن الشاعر كان يتحدث عن حياته هو

ومرت أربعة أعوام . . وبات الشاعر أبا لثلاثة من الاطفال . . وجاء عام ١٥٨٦ وأرغم على أن يترك سترافورد لاهلها : . بدعوى انه ساهم فى اقتحام ممتلكات السير توماس لوسى لاصطياد الظباء . . والغريب ان حقول السير توماس لوسى كانت تخلو منها . . . كان شكسبير رجلا جوالا يطرق الحقول كلما خلا من كفاحه مع الحياة . . وكان لايعرف هذه الحدود فى القوانين الوضعية ولعلهم من أجل هذا اقتادوه الى القاضى . . ولم يخنع شكسبير فأصدر القاضى حكمه بأن يرحل الرجل عن المدينة لعدد مسمى من السنين . . ، على أن الشاعر كان قد ضاق بكفاحه فى سترانفورد وزادت عنت الحياة به بعد الشقة بينه وبين زوجه

ورحل الشاعر من توه الى لندن غير متعجل . . ولكنه بدأ حياة الكفاح ثانية منذ تركه لستراتفورد، وقضى أعواما ستة بين ١٥٨٦ و ١٥٩٢ اما فى لندن . . وأما في طريقه اليها ، قال قوم انه يعمل فى مدرسة للصبيان ، وقال آخرون انه تطوع لخدمة الجيش فى البلاد الواطئه . . وزعم أناس انه كان يتولى حراسة جياد الاشراف عند ماينزلون عنها لمشاهدة التمثيل. وكثر الحديث عن هذه الفينة من حياة الشاعر . . ولكن أقرب الاقاصيص الى الحقيقه انه كان يعمل مع جماعة من الممثلين قدمه اليهم قوم من المجولين كانوا قد نزلوا استراتفورد وعرفوه بها : وكان يعمل كناد فى ملهى مستر بورباج « المسرح »

ثم عدت الايام والعالم فى دورانه السريع لايقف بأى فرد . بل يحركه معه ، وعلى مدى هذا الدوران . . تكون سرعة تطور الرجل . . فقد جاء شكسبير الى لندن وهو لايعرف العمل الذى تحتاجه المدينة العظيمة ليعد نفسه له . . بل جاء لندن لايحمل فى جعبته مادة ثقافية تعينه فى كفاحه المجهول منه . . فلما قيل له اليك بهذه الجياد . . لم يرفض بل امتثل . . ، ولما قيل له قف هنا لتنادى عند بدء التمثيل أطاع . . ، ولكن الوقوف بالباب صناعة لا ترضاها روح شكسبير . والرجل الذي يتطلع الى النور يرغم على تقبل أحد أمرين . . أما أن يغمض عينيه وأما أن ينغمر وسطه . . . ، واندفع شكسبير الى النور يكافح مع نفر الممثلين . . وقضى فى هذا العمل حينا ولكنه لم يتقدم للامام خطوة واحدة بدليل أنه كان ابدأ يفكر فى عمل آخر يجد فيه رزقا وبدليل أنه عند ما مثلت رواياته كلها لم يقف أمام النظارة . . بل شهد رواياته كما يشهدونها وصفق لهم مثلهم !

وانتهى المطاف بالحلقة التاسعة من القرن السادس عشر . . وضاق بشكسبير العيش ، وعرف أنه لن يربح شيئا فى هذه المجموعة . . وبدأ يخط سطوراً على الورق . . والكتابة صناعة ملحة تبدأ عن هبه وتنجح عن تجربة ، وأحس شكسبير من طبعه ميلا الى التأليف فكتب . . ، ولو كان شكسبير قد بدأ فى عصر غير هذا لكافح طويلا قبل أن ينجح ، ولكن هذا العصر من الدرامة هو الذى دفعه الى الامام بسرعة . . ، كانت المسارح تتطلب أبدا شخوصا جديدة تعرف كيف ترضى هذا الجمهور المتباين العقلية والمكانتين الادبية والاجتماعية . . ، جمهور من التجار ورجال الاعمال ، من القرى والعاصمة . . ، من طلبة الجامعة ورجال القانون . . ، من الدهماء والطبقة الدنيا بل من رجال البلاط وأهل القصر انفسهم . . ، وهذا الجمهور الكبير القلب والرأى يتطلب لقلة

عدد المسارح مجهودا سريعا وان لم يجد طهيه حتى كان المؤلفون يتعاونون جماعات فى الروايات لايعنيهم ماتحمل من اسم بقدر ما يعنيهم أمر النقود التى سيقتسمونها بينهم . . ، كل هذا لارضاء الرغبة الملحة لاصحاب دور التمثيل . . ، وهؤلاء بدورهم يدفعون نصيب المؤلفين كاملا غير منقوص لان صناعة المسرح اذ ذاك كانت تأتى أصحابها بربح وافر . .

وفتحت فى حياة شكسبير نافذة يأتى منها الهواء العليل ! !

وتقدم شكسبير خطواته الاولى سريعا ثم نجح . . ، ومن حسن جد العالم أنه عرف كيف يجتذب سكان لندن الى مشاهدة رواياته وأن يرغمهم على متابعة مشاهدتها فى أكثر من مكان ولا كثر من مرة . . ، ونجحت رواياته كلها « مآسيه وملهاته » لا فرق بين التى بدأ بها الكتابة عام ١٥٩١ وشمس القرن السادس عشر تنحدر الى الغروب ، ولا تلك التى ختم بها حياته كمؤلف عام ١٦١٢ والقرن السابع عشر يحبو بعيدا عن جهده ، وكان هذا النجاح سبب مجد شكسبير وأصل خلود اسمه حتى بات فخر الدرامة فى عصر الياصابات . . وبات اسمه يضيء كالقمر عند تمام نموه . . يقول تشارلس سيسون عن هذا فى كتابه « الدراما فى عصر الياصابات » :

« وفى هذا الامد استطاع شكسبير أن يتنفس الصعداء فقد انتهى عبث الايام به . . وصار فى نعمة الحياة . . وضرب الدهر ضرباته بين الفاقه وبينه . . ، كان يكافح حتى لايتضورجوعا وبدأ كفاحه يدفعه الامل ولكنه لايأمل فى الفوز تجاه الخير عميما . . وعرفت يده الذهب ولكنه لم يضمها الى عنقه بل راح ينفق عن سعه ، ورغم هذا الاسراف استطاع أن يشترى فى ستراتفورد كثيرا من الاراض الزراعية . . وأن يبتاع « القصر الجديد » أكبر منازل ستراتفورد مساحة وأعلاها بنيانا وأقربها الى المدرسة التى درس فيها علومه الاولى »

وجاء عام ١٦١١ وترك شكسبير العاصمة ورحل الى ستراتفورد . . لم يكن قد ضاق بالمدينة العظيمة . . كانت رواياته تمثل بنجاح معدوم النظير . . وبرغم هذا التمثيل الكثير طبعت ونالت رواجا . . وكان له فى المسرح الكبير نصيب من اسمه . . ، ولكنه عاد الى مسقط رأسه ليعيش فى هدوء . . وسط الحقول والمزارع التى احبها . . وقضى فى ستراتفورد بين عامى ١٦١١ و١٦١٦ يشرف على ممتلكاته . . ويزور لندن من الحين للحين كما يفعل أشراف الريف ولكن لا ليلتقى الحكام والولاة . . بل ليشهد التمثيل . . ، ولعل الشاعر كان يريد أن يرى الناس ثانية ابن جون شكسبير الذى ترك القرية معدما . . ثم عاد بعد كفاح غير قصير وفى اعطافه الثروة

وفى الثالث والعشرين من ابريل اغمض الشاعر عينيه عن العالم الذى بدأ حياته فيه بالفاقة . . وصحبه فى كفاحه دون أن يهدأ . . ثم انتهى منه بالمجد . .

ودفن فى كنيسة ستراتفورد فى قبر خط عليه « أيها الاصدقاء من أجل يسوع لا تحفروا هاته الاتربة الملقاة هنا . . ، سعيد هو الرجل الذى يحفظ هذه الاحجار ساعة لا تمس وشقى ذاك الذى يحاول أن يحرك أو ينقل هذه العظام التى تغطيها هذه الاحجار . . » وليس ثمة من شك فى أن هذه السطور ليست من كتابة شكسبير

ولا تزال هذه السطور فوق القبر . . ولكن اللوحة قد بدلت . . كما وضع على الحائط وراء القبر تمثال نصفى للشاعر ممسكا بقلمه . . صنعه حفار من سوفوورك اسمه جاريت جنسون . .

شكسبير الروائى

ويجدر بنا قبل الحديث عن شكسبير الروائى أن نتحدث عن المسرح ورجاله عندما جاء الشاعر الى العاصمة . . كان فى لندن مسرحان « المسرح » و « الستار » انشىء كل منهما عام ١٥٧٦ . . على أن كليهما كان خارج لندن إذ كان القانون لا يبيح انشاء دور اللهو داخل حدود المدينة . . واتصل شكسبير لأول مقدمه بأولهما . . وبقى مع هذه المجموعة حتى بارح حياة النور وعاد الي ستراتفورد . .

وكان الممثلون إذ ذاك يرغمون على الانتساب الى رجل من الاشراف ليحول دون عبث السلطات بهم ويقيهم شر حسبانهم من الشريدين الذين لا عمل لهم . . وكانوا ينالون الامر بمتابعة العمل اما من الملك وإما من أحد رجال البلاط . . ، وكانت الياصابات كما كان كبار نبلائها يمنحون الممثلين حمايتهم . . ، كانت هناك جماعات ست . . . خمس منها يرعاها النبلاء لايستر واوكسفورد وسسكى وورشستر وتشارلي لورد وهوارد . . ، والجماعة الباقية ترعاها الملكة وتدعي « خدم الملكة »

وكان شكسبير بين المجموعة الاولى التى يرعاها اللورد لايستر . . وتعاقب النبلاء كل يمنحها حمايته حتى ولى العرش جيمس الأول . فبسط عليهم رحمته وأظلهم بجناحيه ورضى أن يدعوا أنفسهم « ممثلو الملك »

وكانت دور التمثيل تباين هذه الدور التي نراها حتى اليوم في بلاد الريف . . ، كانت تترك طليقة للسماء . وتعرض الروايات للمشاهدين في ضوء النهار . فيبدأ العرض عند الثالثة مساء ويستمر لساعتين أو ثلاث . . ، وكان المسرح نفسه يبنى في الفناء ولذا يمكن لكل فرد أن يرى الممثلين ويتابع سير الاقصوصة ، . ، ويغطى المسرح من العواصف الجوية سقف تحمله بعض الاعمدة تصل بين السقف والارض . . ، وفي طرف المسرح عند اتصاله بجوار الملهى بابان يدخل منهما الممثلون الى مقدمة المسرح . . ، ويقسم المسرح ستار يمكن رفعه إذا أريد إيجاد متسع لمنظر كبير كغرفة عرش . . او لاظهار عدد كبير من الممثلين والنظارة في طريق أو حقل . .

وفي بعض الاحيان يقف الممثل بين المشاهدين . . ، الذين يمثلون إذ ذاك جزءا من الاقصوصه . (١) ، ويتحدث ممثلو عصر الياصابات إلى المشاهدين بخلاف ممثلي هذا العصر الحديث الذين يلقنون في بداية حياتهم المسرحية ضرورة نسيان جمهرة النظارة . . عند مايقفون أمام الستار ويعنى النقاد كثيرا بهذا الاندماج المسرحي للممثل

وبالنسبة لعدم وجود ستار يسدل في نهاية كل قسم من الرواية كانت هذه الاقسام أو « المناظر » تبدأ بأغنية تصحبها موسيقى عازفه وتنتهي كذلك مالم تكن الرواية تمثل في النصف الداخلي للمسرح حيث يمكن الاستار ان تسدل ، وكانت مسألة الجثث كذلك من المشا كل ، ولذا كان الممثلون يتركون ورائهم بعض العمال لنقلها . .

وكان وجود هذا المسرح الداخلي يعاون على ايجاد المناظر التي تتبع بعض المشاهد المعروضة في المسرح الخارجي على أن « المناظر » كانت تختصر الى درجة كبيرة .. فتستبدل غرفة العرش الكبيرة بالعرش وحده . وتوضع بعض أشجار صناعيه لتمثل غابة كثيفة . وضعت نماذج خشبية للجياد والقلاع ، ولكن مع هذا كله كانت الاقصوصة تسير من مكان الى مكان دون أن تستبدل هذه الاثاثات الموضوعة بل توضع أمام المسرح لوحة كبيرة خط عليها بأحرف طويلة اسم المكان ولذا لم يكن هذا ليتطلب طويل وقت ، بينا نحن في أي من الروايات الحديثة يتطلب الرجال الاخصائيون لهذه المناظر رقتا طويلا لينتقلوا بالمشاهدين من غرفه عامل صغير في القاهرة الى سراي في الاسكندرية ، ولهذا تجد الروايات الحديثه قليلة المناظر قد لاتزيد على عدد أصابع اليد الواحدة

(١) عرض هذا في المسرح المصري.. وأول من اوجده الاستاذ عزيز عيد في فرقة فاطمة رشدي الاولى

ولهذه السرعة فى الانتقال بالاقصوصة استطاع شكسبير أن يعرض فى كل من رواياته أكثر من عشرين منظرا ، بل كان فى انطونيو وكليوبترة قرابة الاربعين من هذه المناظر المختلفة المتباينة . ومناظر شكسبير ترجع إلى الاشخاص لا إلى الصور والاثاثات ، فاذا جلس هنرى الثامن على العرش فمعنى هذا أن الملك هنرى فى قصره ، وإذا ارتدى عدة جلاده فمعنى هذا أنه فى ميدان القتال . فالملك لا الجو الذى يحيط به هو العامل الاساسى لسير الاقصوصة

وهذه البساطة فى العرض تزيد من رغبة القارىء في مطالعة روايات شكسبير لانه يستطيع أن يجمع من قواه التصويرية مايعرضه أمامه المؤلف من صور سريعة دون الحاجة الى استذكار تفاصيل لاحاجة له بها

قلت لك أن الاقصوصة تبدأ فى الثالثة ويستمر عرضها الساعتين أو الثلاث ومن الغريب ان المشاهدين يقفون طوال العرض . ويجلس النبلاء إما فى صناديق جانبية واما على مقاعد عند المسرح وعند بداية العرض تدق الطبول . ثلاث مرات متواليات . وفى الدقة الثالثة يخرج للمشاهدين رجل فى ثياب سوداء طويلة يلقى على مسامعهم فاتحة الرواية ثم ينزع الستار الذى تقسم المسرح ويبدأ عرض الاقصوصة

وكان الممثلون يرتدون ثيابا غالية القيمة . ولكنها كانت غالبا لاتتفق مع الوقت والمكان اللذين تتطلبهما الاقصوصة . ويمثل أدوار النساء صبيان فارعو القامة أو نفر من الشباب وجوههم نضرة

وكانت تعرض بين فصول الرواية بعض الاناشيد والرقص . وفى ختام الاقصوصة لايسدل الستار بل يركع الممثلون فوق المسرح ويصلون للملك ويدعون له بطول البقاء

* * *

ومع أن عنصر المرأة كان معدوما طوال عصر شكسبير . إلا أن جل رواياته خلت من الابطال وكانت الشخصيات النسوية فيها قوية جارفة . ولم يبد فى كل هذه الاقاصيص غير رجل واحد هو هنرى الخامس . ولكن هذه البطولة صورت باناضة فيها كثير من الدجل من أجل المسرح لا لاى شىء آخر . ، وكان من الممكن حسبان شخصية عطيل كذلك لولا هاته الليونة التى كانت السبب الاول فى جعله فريسة لكل ما أحاط به

وكانت الشخصيات التى تتبع بطولة هنرى الخامس وشخصيته الجارفة لكل ماظهر فوق المسرح معه من شخوص قليلة . يمكن أن نعد فيها أنتونى وقيصر وكريولانوس . عاش كل منهم قويا جبارا

علا المظمة أعطافه فاذا ماعرف الغرور سبيله إلى قلبه ورأسه سقط . كان هملت كسولا متراخيا وكان روميو طفلا أهوج لايعرف الاناة . ولم يكن تاجر البندقية وكنت « الملك لير » وادرلاندو أقل نبلا ولا أقوى شخصية . ولكن كان إلى جانب هؤلاء مجموعة من النساء هن كورديليا ، ديدمونه ، ابزابيل ، هيرميون ، الملكة كاتارين ، سيلفيا ، فيولا هيلينا ، روزيلاند ، فنيرجيليا وقفت كل منهن الي جانب الرجل المهزوم اليائس كشعلة الامل الخالد تضيء له الطريق

وكانت المأساة تبدأ كنتيجة لخطأ الرجل وغبائه . تلقى هذا فى عطيل وفى روميو وجوليت وفى كريولينس ، وفى أقصوصة الشتاء . وفى سيمبلين

ولم يخرج شكسبير امرأة ضعيفة فى كل أقاصيصه إلا أوفيليا وهذا لانها خذلت هملت فى اللحظة التى بات عندها فى حاجة إلى معونتها

وقد صور شكسبير المرأة فى كل هذه الصور الفذة كينة قوية ملموسة لمكانة المرأة وعملها فى المجتمع . صور المرأة فى صورة الراعى المخلص الامين والمستشار العاقل . والرفيق الطاهر يقف رمزا للقداسة حتى فى اللحظة التى لا يمكنه فيها انقاذ الرجل اليائس المهدم بعنف وقسوة

ولم يقف تصوير شكسبير للمرأة عند هذا بل قد تخطاه حتى إلى النساء اللاتى لم يظهرن للمشاهدين . فتحدث عنهن باجلال واكبار . ففى هنرى الثامن مثلا تلقى فى المنظر الثانى من الفصل الخامس على لسان كرانمر النبوة الرائعة عن الياصابات وهى بعد طفلة فى مهدها . وهى سجل تاريخى خالد لحكم هذه الملكة العظيمة

* * *

وتبدأ حياة شكسبير المسرحية عقب وصوله الى لندن قرابة عام ١٥٩١ . وفى هذه الفترة خرجت له عدة أقاصيص ، ولم تطل هذه الفينة ففى صيف عام ١٥٩٣ انتشر وباء الطاعون وأغلقت دور اللهو كلها لعام طويل . استمر حتى صيف عام ١٥٩٤ ، وفى هذا العام أخرج شكسبير مجموعتين من الشعر هما « فينس ودونيس » ولوكريس واحداهما لايرل سوثهمبتون الصغير مع كلمة نثريه من قلمه

وفتحت المسارح أبوابها للناس ، وعاد شكسبير الى « المسرح » يكتب لصديقه ريشارد بورباج ، وأخرج اذ ذاك رواياته ريتشارد الثالث والثانى وحلم منتصف الليل وروميو وجوليت وتاجر البندقية ، ثم انتقل المسرح إلى جوار « الستار » ومثلت إذ ذاك قصتا هنرى الرابع

والخامس ، وعاد بورباج وجماعته فقرروا أن يتركوا مكانهم فابتاعوا أرضا فى سوث ودرك وأقاموا بنيان مسرح « الجلوب » الذى تم فى صيف عام ١٥٩٩ ، ووضع بورباج دعامة عمله بأن قسم العمل العظيم الى أنصبة يتساهم فيها الجميع . ونال شكسبير سهمين جاءاه بربح وافر حتى مات

وبدأ « الجلوب » بثلاث من « ملهات » شكسبيرهى « ضجة كثيرة » و « الليلة الثانية عشرة » و « كما تريدها » ومرت خمسة أعوام أخرى أخرج فيها يوليوس قيصر وهملت ومكبث وعطيل والملك لير

وطبعت فى حياة شكسبير أربع عشرة من رواياته . وفى عام ١٦٢٣ أى بعد وفاته بسبعة أعوام طبعت مجموعة رواياته فى مجلد كبير وسم بعنوان « المجموعة الاولى » وسأحدثك عن تاريخ طبع كل من رواياته عند ما أحدثك عن انتاجه الادبي . وسأترك لك الحرف (م) ليدلك على أن هذه الرواية لم تطبع قبل طبعها فى « المجموعة »

* * *

على ان انتاج شكسبير يمكن تقسيمه الى فترات خمس كانت كل منها تمثل طورا من أطوار هذه الحياة المسرحية

(١) قبل عام ١٥٩٤

هنرى السادس ٣ فصول	م
تيتياس أند دونيكاس	١٥٩٤
شريفان من فيرونا	م
ملهاة الاخطاء	م

(٢) ١٥٩٥ — ١٥٩٦

الملك جون	م	
ترويض الشريرة	م	
ريشارد الثالث	١٥٩٧	
روميو وجولييت	١٥٩٧ ١٥٩٩	بدون إذن الشاعر

ريشارد الثانى ١٥٩٧

حلم منتصف ليلة من ليالى الصيف ١٦٠٠

تاجر البندقية ١٦٠٠

الخير للخير «كل ينتهي بالخير» م

( ) ١٥٩٧ — ١٦٠٠

هنرى الرابع الجزء الاول ١٥٩٨

هنري الرابع الجزء الثانى ١٦٠٠

هنرى الخامس { ١٦٠٠ / م } بدون اذن الشاعر

زوجات وندسور الطروبات { ١٦٠٢ / م } « « »

ضجة كثيرة بلا سبب ١٦٠٠

الليلة الثانية عشرة م

كما تريدها م

(٤) ١٦٠١ — ١٦٠٨

يولبوس قيصر م

هملت { ١٦ ٣ / ١٧٠٤ } بدون إذن الشاعر

مكبث م

عطيل ١٦٧٢

ترويلاسى وكريسيدا ١٦٠٩

العين بالعين م

لير ١٦٠٨

تيمون الاثينى م

أنتونيو وكليوبتره م

كريوليفس م

بركليز ١٦٠٩ (ولم تطبع ضمن المجموعة)

(٥) بعد ١٦٠٨

سمبلين م

قصة الشتاء م

العاصفة م

هنرى الثامن م

ولكن ارنست رايز قسمها الى فترات اربع فى مقدمته لكتاب « ملهيات شكسبير » طبع ذلك ضمن مجموعة الاولى بين عامى ١٥٩١ — ١٥٩٣ ، والثانية بين عامى ١٥٩٤ — ١٦٠١ ، والثالثة بين عامى ١٦٠٢ — ١٦٠٩ ، والرابعة بين عامي ١٦١٠ — ١٦١١ ، وليس بين تقسيم رايز وجديث هاريسون كبير فرق .. ولكن الذى يعنينا من هذا كله أن ارنست رايز قال بان شكسبير قد ترك وراءه ثلاث روايات أكلها بعد عودته الى ستراتفورد غيره من المؤلفين .. هذه الروايات هي كاردنيو ومثلت عام ١٦١١ وهنرى الثامن ومثلت عام ١٦١٢ وشريفا كنسمن وأخرجت أيضا عام ٩٦٩٩ ، ويوجهنا هذا الحديث مرغمين الي أن نسائل أنفسنا هل كان شكسبير حقا هو المؤلف الوحيد لكل هذه الاقاصيص التى نشرت باسمه

وسنعود الى الحديث عن هذه المؤلفات فى فترة أخرى عندما نتحدث عن « دعوى الملكية فى مؤلفات شكسبير » وموعدنا بها عدد قادم

مختارات من مؤلفات شكسبير

الواقع أنى وقفت طويلا بازاء هذا العنوان بعد أن خططته على الورق .. وليس هذا لان الاختيار فى ذاته صعب مجهد .. وانما لأن اختيار رواية من مؤلفات شكسبير انقلها لك هنا أمر لا يمكن أن تتسع له هذه الصفحات ، ونقلها اليك منثورة ملخصة على قياس مافعله توماس كارتر وغيره من كتاب العصر الاخير يخرج بك من قصيد الشاعر الى أفكاره الفلسفية وفنه المسرحى وكلاهما تحدثت لك عنه وإذن فلا محل لهما فى هذا الحديث .. ولهذا سأنقل لك بضعة من أحاديث ابطاله الذين يعترهم فى قصصه بمهارة

واذا قلت لك ابطاله لا أعنى المعنى الذى يفهم من الكلمة بداهة . . بل أريد « الشخصيات » التي تظهر على المسرح ولا تنسي عندما يسدل الستار على الاقصوصة .. بل تعيش فى ذاكرتك حية خالدة

ولكن هذا لا يغنيك عن الوقوف طويلا بازاء الصور الوضعية التى خطها الشاعر فى رواياته كما يجب أن لا يحول دون مطالعتك لهاته الروايات المليئة بارواح حية محببة الى النفس .. ان الذى يقرأ روايات شكسبير يقرأها ثانية ، وفى كل مرة يجد جديدا يحببه فى اعادة مطالعتها كل سطر من سطورها له معناه ووراء كل معنى آلاف الاخيلة . . ان النقد الاخير لمؤلفات شكسبير لا يمكن أن يكتبه فرد لانه لن يلقى كتابه ليمسك بقلمه . . فقراءة شكسبير احب من الكتابة الى كل نفس حساسة شاعرية . .

وأنقل لك هنا قطعة من قصيدة فى مجموعته الاولي وسمت بعنوان « الحياة السعيدة » :

تحت شجيرة الغابة الخضراء انتظر

ذاك الذى يريد أن يرقد الى جانبي

لننقل سويا الى العالم هذه الانغام التي يرددها العصفور الصغير

فيقدم الى هنا وليتبعنى

فلا نر عدوا لنا

غير الشتاء والبرد القارس

* * *

وذاك الذى يطمع فى أشعة الشمس

ويود أن يعيش تحت أشعتها الذهبية

باحثا عن الطعام الذى يأكله ، مسرورا بما يستطيع أن يناله

ليقدم الى هنا وليتبعنى

فلن نر عدوا لنا

غير الشتاء والبرد القارص ..

وتجد فى مجموعتى شعر شكسبير الكثير من هذا النوع السهل المرسل من القصيد ، على أنه ليس على قياس ما فى مجموعتيه قامت شهرته كشاعر فذ . . بل تستطيع أن ترقب هذه العبقرية فى رواياته . . تقف عند سطورها مأخوذا بهذا السحر الماثل فى الالفاظ مثوله فى المعاني . . ، والفاظ شكسبير - هاته الالفاظ التى كانت عمدة الشاعر فى اظهار فلسفته ووضحت منها طريقة تفكيره فى حياكة قصصه وحبكتها المسرحية - كانت أولى الدعامات التى قام عليها مجد الشاعر . .

على أنه كان فى بعض مقطوعاته نقد واظنى حدثتك بتباين قوة اللغة وروابطها فى حديث الشخص الواحد بين منظرين متتابعين . . وقلت لك ان هذا يرجع اما الي أن شكسبير قد خط رواياته فى فترات متباعدة وكان يرجع الى بعض أجزائها من حين الي آخر فنشأ عن هذا ذلك التباين فى ضعف اللغة وقوتها . . واما ان هذا ناتج من أن غير شكسبير كان يكتب فى روايات شكسبير ، وقلت لك ان هذا كان رأى ارنست رايز فى الروايات الثلاث التى لم تكمل الا بعد عودة شكسبير الى ستراتفورد ، وان أوضح ماتلقاه من هذا تجده فى هنرى الثامن . ووقفت لك طويلا عند حديث الناقد مستر سبدنج ولكن ليس لهذا من سبيل هنا وسأنقل لك قطعتين من يوليوس قيصر وقطعة من هنرى الثامن . . ولكن هذا لايعنيك كما قلت لك عن الرجوع الى الاصل لترقب سحر الالفاظ التى خطها الشاعر فى قصيده

وتعتبر قصة يوليوس قيصر من أروع ما كتب شكسبير .. وتلقى فيها مهارة الشاعر فى حياكة شخصيات قصته وتصوير هاته الارواح التى ترنجح فى صدور أبطاله ، وهو يسير من بداية المؤامرة حتى مقتل قيصر .. ثم يقف بك متمهلا أمام الجثة المعفرة بالتراب مغمورة بالدماء تحت تمثال بومبى .. فيريك دهاء انتونى وقوة عارضته ، ويريك ثورة الشعب الجامحة . حتى يعود ثانية الى أن يقتل بروتاس نفسه وهو يقول :

« قيصر !! الآن تطمئن .. فانا لم أقتلك بارادة أقل من هذه »

وأسوق لك من يوليوس قيصر . قطعة من المنظر الثانى الفصل الاول وكاشياس يتحدث الى بروتاس ، يحرضه على أن يساهم معه فى المؤامرة الكبرى

ولقد وقف توماس كارتر طويلا فى كتابه « قصص من شكسبير » أمام هذه المهارة فى تصوير كراهية كاشياس لقيصر . هاته الكراهية التى بدأت باعجاب . ثم تطورت عندما أمسك قيصر بالذروة . وكاد يبلغ غاية مجده . واقرأ معى قوله :

لقد ولدت حراً كقيصر وكذلك أنت

كلانا يأكل كما يأكل وكلانا مثله يستطيع

أن يتحمل برد الشتاء القارس

أذكر فى يوم عاصف

أن نهر التيبر كان يزأر بين شاطئيه
وصاح بي قيصر . أتجرأ يا كاشياس الآن
ان تقفز معي في هذا العباب الغاضب
وأن تسبح الى هناك ؟ فلم يتم حديثه
حتى قفزت الى اليم بعدتي وثيابي
وسألته أن يتبعني ففعل
وزأر البحر فلاقيناه بعزيمة وبأس
وكافحناه بقلبين لا يعرفان الجزع
ولكن قبل أن نصل الى غايتنا
صرخ قيصر . ادركني يا كاشياس أو يبتلعني اليم
وكجدنا الاكبر اينياس
عند ما احتمل فوق كتفيه في حريق تروادة
الشيخ انكايزيس ..... حملت انا من أمواج التيبر
قيصر . هذا الرجل
الذي بات اليوم آلها . بينا كاشياس
مخلوق تعس يجب أن يحني هامته
اذا مارني له قيصر بطرفه ..

على أن نجاح شكسبير في يوليوس قيصر لم يقف عند حد التحريض . أو اظهار كراهية المتآمرين على قيصر بل أصحب معي شكسبير في قصته . وأترك المأساة تتم . وأغلق أذنيك أمام صراخ الشعب . وأغمض عينيك حتى لاترى الحملة على قيصر فيطعن بالخناجر ويمزق صدره ثم يلقى على الارض تحت التمثال الذي رفع هامة أهله بذراعه القوية . دع هذا كله وسر معي الى المنظر الثاني من الفصل الثالث لروايته « يوليوس قيصر » وسأقف بك عند حديث مارك انتوني على جثة قيصر . سنرى نوعا آخر من التحريض . ولكن هنا رجلا يحرض الشعب على قوم من سادته وحكامه وهو بغير الشعب اعزل . وسنرى هذا الاسلوب الجارف . وسنري مهارة الرجل الذي

بدأ بقوله . « أيها المواطنون . ايها الاصدقاء . لقد قدمت لاوارى قيصر في التراب لا لامتدحه »
فاذا انتهى من حديثه قال . « إذن فارقبوا ها هو قيصر نفسه وقد فتكت به أيدى الخائنين »
هذه ليست قوة انتونى . ولكنها عبقرية شكسبير وسحر الفاظه . واقرأ معى :

« من كان في مقلته عبرة فليسكبها
انكم جميعا تعرفون هذا القباء . انى لأذكر
يوم أن ارتداه قيصر للمرة الاولى
كان مساء من أمسية الصيف وفى خيمته
وفى هذا اليوم كان قد هزم اهل « نيرفا »
انظروا . هنا نفذ خنجر كاشياس
انظروا أى قطع فعله كاسكا بغل وحقد
وهنا طعنه صديقه المحبوب بروتاس
وعند ما نزع خنجره البغيض
انظروا ، كيف طفح دم قيصر
وكأنه يتدفق من الابواب ليستوثق
أهو بروتاس الذى طعن بغير رحمة أم من ؟
فان بروتاس كما تعلمون كان كالملائكة فى نظر قيصر
أشهدى ايتها الآلهة كيف كان قيصر يحبه
كانت هذه أقسى الطعنات كلها
لان قيصر النبيل عندما رأى الرجل
يغلبه الجحود انصدع قلبه الكبير
واخفى وجهه فى قبائه
وسقط تحت تمثال بومبى والدماء تنزف منه
أية سقطة هي يامعشر الرومان . .
فقد تبعته انا وأنتم فى سقطته
وفشت الفوضى بيننا
أتبكون !! إنى أشعر بأنكم تحسون
بالشفقة تحرك قلوبكم . . . . . هذى قطرات طاهرة

أيها الرجال الاطهار . . أتبكون لانكم ترون
جراح قيصر فى صدره ؟ . . اذن فارقبوا
ها هو قيصر نفسه وقد فتكت به أيدي الخائنين »

* * *

دع يوليوس قيصر وسر معى الي اقصوصة من اقاصيص الفترة الخامسة من انتاجه القصصى (بعد عام ١٦٠٨) وأختار لك واحدة منها هي « هنرى الثامن » فقد درست حينا فى المدارس المصرية . . ، وعرضت فى مسرح الاشباح فى أكثر من دار بالقاهرة وحدها . . ونشرت ملخصة فى الاهرام . . ولعلها لهذا تكون أقرب الى نفسك من سواها . . وتمتاز « هنرى الثامن » بأنها مأساة ثلاث شخصيات تامة العظمة كان سقوط كل منها بمفرده يصلح لان يكون « درامة » قائمة بذاتها . . ، نرى فيها مصرع بكنجهام لانه أغضب الملك وسقوط وولزى الوزير الاول . . وموت كاثارين الملكة التى هدمت بعنف من أجل مطامع الملك ورغبته الجامحة من أجل المرأة الحسناء . . ، والقطعة التى انقلها لك من المنظر الاول فى الفصل الثانى . . ، وسنرى هنا بكنجهام وهو يتحدث الى الشعب . . يودع الحياة وهو فى طريقه الى حيث يقطع رأسه بالفأس . .

« أنتم أيها الذين قدمتم من أما كن بعيدة لتبدوا لى أحزانكم
اسمعوا ما احدثكم به . . ثم عودوا الى منازلكم وتناسونى
لقد اتهمونى اليوم بالخيانة . . وحاكمونى من أجلها
وتحت مراسم هذا العار يجب أن اموت
غير أن السماء بمفردها هي التى تعلم . .
واذا كنت أحمل نصيبا من هذه التهمة التى القوها على عاتقى
فلتبتعد عنى روحى الي الجحيم
واذا لم أكن مخلصا لوطنى حتى فى اللحظة التى تقع الفأس فيها على رأسى
لست أحمل للقانون ضغينة من أجل موتى
لقد دافعت طويلا من أجل براءتى
كنت أود أن يكون أولئك الاعداء الذين أرادوا موتى أكثر رعاية للدين
ولكنى بالرغم من هذا أغفر لهم جريمتهم وان كنت أطلب اليهم أن لا يفخروا بأنهم يقيمون عظمتهم على اقتراف الآثام

ولا يدعموا شرورهم بانقاض عظماء الرجال ..
لست آمل أن يطول بقائى فى هذه الحياة
ولن أطلب ذلك من الملك وان كنت عليما برحمته وعطفه
اغفروا لى أيها الناس الذين تحبوننى ، خطاياى
اذا كنت قد أخطأت فى حقكم يوما ..
تجاسروا أن تبكوا بكنجهام
ان الذى يؤلمنى هو فراق اولئك الاصدقاء الذين احبهم
اصحبونى كملائكة السماء الى القبر
وعندما تسقط الفأس لتقطع رقبتى
اجعلوا من صلاتكم منحة نبيلة
ودعوا روحى يشهر الى السماء باسم الرب »

« * »

وتلقى مثل هذا الحديث من دولترى وكاثارين .. وتنتهى العظمة بالآلام .. ويقف دوران الحياه بالحسرة والالم .. على أن خير ما فى هنرى الثامن كلها هذه الحكمة التى خطها شكسبير على لسان جريفث بالمنظر الثانى من الفصل الرابع

« * »

ولعلك وقفت أزاء هذا التعريب حينا .. فانا نقلت اليك الحديث فى شعر منثور .. ووقفت بك أمام كل سطر الى ترجمة صحيحة له .. على قيـاس ما ينقل فى الدراسات المدرسية وقصدت بهذا أن ترى سطور الشاعر فى وحدة لا مزوقة ولا ممسوحة عند ما تضاف الى بعضها فى جملة هى من صناعـة المعرب لا من قلم الشاعر .. صحيح ستلتقى فيها الوحى الاول ولـكن وراء ستر رقيق يخفى عنك بعض جمال روعة الصورة الاولى التى خطها بها الشاعر

اطالة الحياة

لرمسيس شحاته

هل يمكن أن نتغلب على الموت ونطيل الحياة ؟
محاولة ذلك في ضوء الابحاث الحديثة

مقدمة

ذكر الاستاذ جان بيران فى محاضرة ألقاها عن الامل الجديد ان غاية من أغرب غايات العلم الحديث هى اطالة الحياة بقدر المستطاع . وفى الواقع ان ما قاله الاستاذ عن هذا الموضوع هو عين الحقيقة . انه من الطبيعى أن يواصل العلم ابحاثه للبلوغ إلى هذه الامنية البعيدة مادمنا نحس فى قرارة أنفسنا تلك الرغبة الملحة فى البقاء أطول ما يمكن والاحتفاظ بالحياة الى أقصى حد ولو أننا كثيراً ما نشقى ونتعس بها

وقد ذهب الاستاذ إلى أبعد من ذلك فذكر انه ربما كانت هذه الغاية وحدها هى التى أوجدت الطب وما ينحو نحوه من العلوم والفنون . ونحن نرى صدى ذلك فى كل ما خلفته لنا المدنيات السابقة لاشك اننا جميعا قد سمعنا عن ذلك الاكسير العجيب الذى ظلت الانسانية تجرى وراءه ردحا من الزمان والذى كان يظن أن له القدرة على رجع الحياة إلى الجسم حتى بعد مفارقتها إياه فوق الاحتفاظ بها فيه لو حل به المرض وتوالت عليه العلل

وإذا كان هذا هو أمر الطب فيما خلا من العصور فانه مما لايدعو إلى الدهشة أن نقول أن الطب فى الوقت الحالى مازال عند غايته الاولى وان محاولاته وان تهذبت ما زالت ترمى إلى نفس الهدف

تقسيم

ونحن نقصد استعراض هذه المحاولات ولكنا نحب أن ننبه القارىء إلى أن ذلك أمر يكاد

يكون مستحيلا . ان استعراض كل المحاولات التى قام بها الطب للتغلب على الموت أمر يتطلب سنين عديدة فوق تطلبه ثقافة خاصة فهذا فى الواقع هو كل بضاعة الطبيب ولذلك نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نلجأ إلى تقسيم هذه المحاولات إلى أقسام كبرى يكفى بعدها أن نتكلم قليلا عن كل قسم منها

ومن حسن الحظ أن هذا التقسيم سهل ميسور ولو أن عليه مسحة من الاصطناع والتعمد

تنقسم المحاولات التى قام بها الطب فى سبيل التغلب على الموت إلى قسمين رئيسين أولهما قسم يقصد به رجع الحياة إلى الجسم بعد مفارقته أياه وثانيهما محاولة الاحتفاظ بالحياة من الجسم أطول مدة ممكنة

الحياة :

لاتفزع أيها القارىء لاشك ان رد الحياة إلى جسم ميت يعد بالنسبة لك معجزة لايقوى عليها إلا الاولياء ولكن من ادراك أنه ليس بين الاطباء والعلماء أولياء من أتقى أولياء الله وأطهرهم ذيلا . انى متفق معك على أن هذه المسألة على قدر عظيم من الغرابة وأعطيك كل العذر لو قلت وأكدت انه لابد أن يكون فى الامر مبالغة شديدة ولكن كل ذلك لايمنعنى من أن أؤكد لك ان رجع الحياة إلى جسم ميت بعد الآن من بين الغايات التي يسعى اليها العلم حاليًا بشتى الطرق وأستطيع أن أؤكد لك أنه يوجد الآن بين البشر أناس أمكن أن تعود اليهم الحياة بعد التأكد المطلق من فقدها بواسطة هذه الطرق . ان المسألة ليست تهويشا أو دجلا انما هى حقيقة علمية لها براهينها ولا شك انك قد سمعت ولو همسا عن حقن الادرنالين والكورامين التى تعيد إلى القلب حركاته بعد وقوفه التام ولا شك أنك قد سمعت عن احياء الغرقى بشتى الطرق

واسمح لى الآن أن أترك هذا الموضوع وذلك لاسباب ربما كان أهمها انه لم يعد عندى ما أقوله لك عنه أكثر مما تقدم وقد لا تجد عند أحد من الناس أكثر مما تقدم . ان هذا الموضوع على غاية من التعقد والغموض كما أنه مازال قيد البحث . ومن الحكمة أن لانتوغل فيه إلى أبعد من ذلك فانه كفيل بأن يقودنا إلى اصطدام عنيف نحن أحوج الناس الى تجنبه وأشدهم نفورا منه

الاحتفاظ بالحياة :

هذا هو القصد الذى ترمي اليه البقية الباقية من محاولات العلماء فى التغلب على الموت والغرض

الذى يرمي اليه مجموع هذه المحاولات هو الاحتفاظ بالحياة فى الجسم ومنع المرض من انتزاعها منه اذا حل به ثم اعداد الجسم فى الحالة العادية للمقاومة ضد المرض ومنعه من التمكن منه. وواضح ان هذا القصد قصد مزدوج وان الغاية الاولى تشمل مجموع العلاجات والادوية التي وصل اليها الطب فى مقاومة الامراض وأن الغاية الثانية هى مجموع الشروط الصحية التي يجب أن يراعيها الانسان حتي يتجنب غائلة المرض وحتى يزيد فى قوة جسمه ومناعته ليتمكن من التغلب على المرض إذا حل به رغم احتياطاته . وهذا الغرض الاخير هو ما نقصد قصر الكلام عنه فيما يلى لاننا لو تورطنا فى الكلام عن الغرض الاول لاحتجنا الى الكلام عن كل العلوم الطبية تقريبا

ضرورة الموت :

وربما يعترض القارىء على كل ما تقدم بأن يقول ان كل هذه المحاولات تتضمن انكارا بقاعدة الموت الطبيعي وهى التى تنص على أن الانسان يصبح بعد سن معينة فى حاجة طبيعية الى الموت وهى التى تريد أن يكون الموت ظاهرة فسيولوجية طبيعية . مآل الانسان اليها مهما طالت حياته ومهما كثرت احتياطاته .

وفى الحق إن هذا اشكال فلسفى معقد نشأ عن بعض المعتقدات الدينية التى يؤيدها ما نراه كل يوم من موت الكثيرين ممن نتوسم فيهم الصحة . الامر الذى يظهر لنا الموت كحقيقة مستقلة وكأمر طبيعى عادى وكمصير محتم لكل بشرى ليس من سبيل الى تخطيه . ولكن نلاحظ الى كل ذلك ان كل ما تقدم لا يمنعنا من القول بان ضرورة الموت مشكلة لاتزال قيد البحث وأنه ليس هناك ما يمنعنا من أن نؤمل التغلب على الموت فى يوم من الايام . بل نستطيع أن نقول أن جهودا هائلة تصرف وستصرف فى سبيل ذلك وأن حالتنا الراهنة من العلم تسمح لنا بالاستمرار فى السعي وراء تحقيق هذه الغاية . وتشجعنا فى هذا الامثلة الكثيرة التى تقدمها لنا الطبيعة كل يوم فهناك كثير من الكائنات الحية لاتعرف الموت ولا توجد بينها تلك الحاجة الغريبة الى التلاشى والزوال

كيف نحتفظ بالحياة :

ولكي نعرف بالدقة كيف نستطيع الاحتفاظ بالحياة وما يجب علينا فى ذلك يحسن بنا أن نبدأ بدراسة الطرق التى يتطرق بها الموت والتلف إلى الجسم فاذا ما عرفنا حقيقة هذه الطرق

أمكننا أن نتسلح للتغلب عليها بالسلاح النافع وأن نقيم فى سبيلها الحصون المنيعة والسدود القوية لمتينة . ودراسة هذه الطرق أمر سهل لحسن الحظ . لأنها تكاد تنحصر فى طريقة واحدة فالسلاح الوحيد الذى يستعمله الموت للقضاء على الحياة فى الجسم وهو النتيجة العامة التى ترمي اليها كل لامراض تنحصر فى كلمة واحدة هى الشيخوخة

ومن حسن الحظ أن الشيخوخة تظهر فى الجسم بمظهر يكاد يكون واحدا إن السبب الرئيس الذى تعقبه الشيخوخة هو التصلب ونحن نسمى العضو من أعضائنا شيخا إذا حل به التصلب . من ذلك نستنتج أن الموت أو المرض يلجآن لابادة الحياة فينا الى سلاح هو الشيخوخة وانهما يخلان هذه الشيخوخة من أجسامنا بطريق عام هو التصلب ومن هنا نرى أن الشيخوخة والتصلب لفظان يعبران عن حقيقة واحدة

الشيخوخة

يتضح مما تقدم أنه ليس أمامنا من سبيل للتغلب على الموت إلا بالتغلب على الشيخوخة وتأجيل حلولها بالجسم الى أبعد مدي ممكن . فانه من المعروف أن الشيخوخة تهيء الجسم للمرض وتجعله مرتعا حصينا للميكروبات . ولقد رأينا انه للتغلب على الشيخوخة يجب أن نمنع الجسم من أن يصبح فريسة لعملية التصلب التى تسبقها . ولو تأملنا قليلا الاسباب المباشرة التى تسبب التصلب لوجدنا انه من السهل مقاومتها . إذ التصلب يرجع فى كل الحالات تقريبا إلى أمر من اثنين اما توقف الغدد الصماء عن الافراز كليا او جزئيا او حدوث التسمم بالجسم سواء أ كان هذا التسمم بطيئا أو سريعا ملحو و مهملا

الغدد الصماء

نقصد بالغدد الصماء الغدد التي تصب افرازها فى الدم مباشرة كالغدة النخامية اوالغدة الدرقية أو غيرها . وهذه الغدد مقوم من مقومات الحياة الاساسية فى جسم الانسان فضلا عن أنها أكبر منظم ومقياس لقوى الانسان الحيوية ونشاطه وإلي ذلك فانها تلعب دورا خطيرا فى مناعته وقدرته علي المقاومة

ويكفى للدلالة على خطورة هذه الغدد وأهميتها الكبرى فى جسم الانسان أن نقول أن استئصال بعضها لابد أن يعقبه الموت مباشرة . ويمكننا أن نربط الشيخوخة إلى حد بعيد بتوقف

الغدد التناسلية وهي غدد صماء عن افراز هرمونها الخاص وصبه فى الدم . ولذلك قد تبادر الى ذهن العلماء منذ زمن بعيد استعمالها فى مقاومة الشيخوخة واعادة الشباب وأول من لجأ لذلك استاذ فرنسى هو « براون سيكار » لحقن نفسه بخلاصة الغدد التناسلية للغدة ولاحظ انها زادت كمة نشاطه وحيويته وقد شجع ذلك غيره من العلماء على القيام بابحاث أخرى كثيرة فى هذا الموضوع ادت إلى مثل ما هو معروف عن عمليات الدكتور « فورنوف »

وواضح أن مثل هذه العمليات يحفها كثير من المخاطر فضلا عن أنها تتطلب مهارة خاصة واشرافا طبيا دقيقا لانها على قدر عظيم من الصعوبة فوق أنها محدودة الفائدة لأنها قصيرة الاستمرار إذ ينحل الجزء المطعم شيئا فشيئا حتى يزول كلية نظرا لانه مأخوذ من حيوانات أخرى غير الانسان وإن كانت الصلة الحيوية كبيرة بينهما

التسمم

بقى التسمم كعامل من العوامل المؤدية الى الشيخوخة وكسبب مباشر لتعجيلها ولقد عبر فريق من العلماء عن الشيخوخة بأنها تسمم بطيء يصيب خلايا الجسم شيئا فشيئا حتى يظهر بمظهر الشيخوخة من الجسم كله فى آخر الامر

ولهذا التسمم مصدران. مصدر خارجي ومصدر داخلي. أما المصدر الخارجي فواضح انه هو ما يمكن أن نتناوله من السموم . وواضح فى هذه الحالة أن العلاج الوحيد لذلك هو أن نمتنع عن تناولها بالمرة لو أردنا أن نطيل حياتنا . لاشك أنه لو سألك طفل كيف يستطيع أن يعيش طويلا ولاحظت أن فى يده زجاجة من الليزول او حمض الفينيك أو أى سم آخر لكان من الطبيعي جدا أن تنهاه أولا عن ان يشرب ما فى يده — وكذلك الامر معنا أن الطب ينهانا إذا كنا نريد أن نحتفظ بحياتنا إلى أقصى مدة أن نتجنب تعاطى السموم ولا شك أن ما يقصده بكلمة السموم لا يقصد به الليزول وحمض الفينيك أو صبغة اليود انما يتعداها إلى الكحول الموجود فى الخمر والنيكوتين الموجود فى الدخان والسموم العضوية الموجودة فى اللحوم المحفوظة على العموم ثم السموم الموجودة فى المواد الملوثة بنوع عام سواء أكانت من الخضراوات أو غيرها

وعلى ذلك يحسن بنا أن نتأكد أولا أننا لانتناول من هذه السموم شيئا وأن نجتهد كل الجهد فى أن نتحاشاها كلية فان فى ذلك توفيرا لمجهود هائل يصرفه الجسم فى سبيل التغلب عليها هو أحوج ما يكون اليه لاداء وظائفه الاخرى

المصدر الداخلي

ولعل القارىء مشتاق الآن لان يقف على هذا المصدر الداخلي الذى يورد له من السموم ما يعجل شيخوخته ويحرمه من كثير من نشاطه وصباه وذلك على أمل التخلص منه بأقرب فرصة وفى أقصر وقت . والامر هين بسيط إن هذا المصدر الرهيب هو الكميات الهائلة من الميكروبات التى تعيش عادة فى أمعائنا الغلاظ . وهذه الميكروبات موجودة فى أمعاء كل الناس على السواء وهي تنشأ وتتوالد فيها بعد مدة قصيرة من الولادة ثم تظل فيها حتى نهاية الحياة

التعفن والتخمر :

وتعيش هذه الميكروبات فى الامعاء الغلاظ للانسان وتستمد الغذاء الذى يعوضها ماتفقد من مجهود فى الحركة والنشاط والتوالد من فضلات الغذاء الموجودة فى هذه الامعاء . وهى تنقسم من حيث طريقة استخدامها لهذا الغذاء والانتفاع به الى قسمين مختلفين قسم يلجأ الى تخمر المواد السكرية وقسم يلجأ الى تعفن المواد الزلالية وسنرى أهمية هذا التقسيم فيما يلي

والآن لنتأمل قليلا عمليتى التخمر والتعفن هذه لنرى بعض نتائجها وشروطها . يفرز الميكروب انزيماته الخاصة فتؤثر هذه الانزيمات على المواد الصالحة لغذائه أى على المواد السكرية اذا كان من ميكروبات التخمر أو على المواد الزلالية اذا كان من ميكروبات التعفن . وتؤثر هذه الانزيمات فى تلك المواد محترفة فيها سلسلة من التغيرات الكيمائية التى تنتهى بجعل المادة الاولية صالحة لغذاء الميكروب وهذه العملية تشبه عملية الهضم فى الانسان . والآن لنتأمل قليلا ما تنتجه كل من عملتى التخمر والتعفن على حدة

أما عملية التخمر فانها تنتهي بأن تحول المادة السكرية الى مادة حامضة وللتخمر أشكال متعددة ولكنها تشترك فيما بينها فى هذه الخاصة وهى انها تعطى الوسط الذى تحدث فيه مقداراً معينا من الحموضة يتوقف على نوع الميكروب المسبب لها ونشاطه

أما عمليه التعفن فانها بعد أن تجرى فى المادة الزلالية عدة تحولات كيمائية معقدة تنتج منها ما يعرف بالامينيات وهذه المجموعة من المواد العضوية تمتاز بقاعدتيها وبأنها تتضمن عددا وافراً من أفتك السموم القتالة مثل البتومائين مثلا . وعلى ذلك بمض عملية التعفن فوق السموم الآنفة الذكر فى الوسط الذى تحدث منه مقداراً معينا من القاعدية

مما تقدم يتضح أمر مهم وهو أنه يوجد بين عمليتي التخمر والتعفن تضاد ظاهر من حيث ان الاولى تستلزم وسطا حامضا والثانية تستلزم وسطا قاعديا . ومن ذلك نستنتج اننا نستطيع التحكم فى حياة الميكروبات داخل الامعاء الغلاظ فان حموضة الوسط أو قلويته تؤثر كثيرا فى نشاط الميكروبات . فميكروبات التخمر مثلا أكثر نشاطا فى الوسط الحامض منها فى الوسط القاعدى والعكس بالعكس بالنسبة لميكروبات التعفن

والنتيجة التى نريد أن نصل اليها مما تقدم هى أن التعفن يولد سموما فتاكة وهذه السموم يمتصها الجسم وتتوزع على خلاياه المختلفة حيث تسبب التصلب والشيخوخة ان لم يعادلها الكبد ويوقف تأثيرها وعلى ذلك نرى ان التعفن هو فى الواقع المسئول والمسبب الرئيس للشيخوخة مادمنا نسلم انها تحدث عن طريق التسمم البطىء المستمر

العلاج

واضح ان العلاج الصحيح لايقاف الشيخوخة أو تأجيلها هو التخلص من عملية التعفن هذه بأى حال من الاحوال وأول فكرة تخطر لنا عند التفكير فى وسيلة لذلك هى التى أوحت العلاج الجراحى

لقد ذكرنا فيما تقدم أن السبب فى هذا التسمم هو عملية التعفن وأن عملية التعفن هذه تسببها الميكروبات الموجودة فى الامعاء الغلاظ من أهمية واضحة فى جسم الانسان فلماذا لانستأصلها كلية ونتخلص بذلك من الميكروبات التى فيها وما تلحقه بالجسم من ضرر بليغ ؟

لقد تساءل نفس هذا السؤال الاستاذ متشنيكوف البكتريولوجي العظيم ولم يتردد لحظة فى الاجابة بالايجاب . فقد نصح بأن نستأصل كل الامعاء الغلاظ وادعى انه لابد ان يأتى يوم تستأصل فيه هذه الامعاء لكل الاطفال وأن تصبح فيه هذه العملية من العمليات الضرورية كعملية التطعيم ضد الجدرى أو السل مثلا . ولكن متشنيكوف وان كان بكتريولوجيا فذا لم يكن جراحا كما انه لم يكن فسيولوجيا ولذلك لم يقدر صعوبة العملية وكثرة نفقاتها الباهظة كما انه نسى ان هذه الامعاء ربما كانت ذات قيمة فسيولوجية عظيمة وان كنا حتى الآن لم نتحقق من ذلك . ولقد كفى هذان الاعتراضان على احباط دعوى متشنيكوف لاستئصال الامعاء الغلاظ

وعلى ذلك وجب البحث عن طريق آخر للتخلص من عملية التعفن هذه وما تولده فى الجسم من سموم قاتلة

البحث عن الطريق :

منذ ذلك الحين أخذ العلماء فى التفكير عن طريقة جديدة يصلون بها الى غايتهم الاولى وهى التخلص من هذه السموم . وأول فكرة عرضت لذلك هى قتل الميكروبات الموجودة فى الامعاء الغلاظ واقترح البعض استعمال المطهرات ولكن ظهر ان استعمال هذه المطهرات معناه زيادة عملية التسمم فى الجسم لان هذه المطهرات نفسها ليست الا سموما هى الاخرى وانها عرضة لان تمتص فى مختلف أجزاء الجسم . وفوق ذلك فاننا لو فرض واستطعنا أن ندخلها الى الامعاء الغلاظ مباشرة فان مجرد احتكاكها بجدر هذه الامعاء كاف لقتل الغدد الهضمية الموجودة فى هذه الجدر مما لا يمكن تعويضها فيما بعد . وفوق ذلك فاننا لو فرضنا أن المطهر المستعمل قد قتل كل الميكروبات الموجودة فاننا لا نلبث أن نرى ظهورها ثانية بعد مدة من الزمن نظرا لتلوث أطعمتنا بها

وبعد قليل اتضح أن هذا الطريق أيضا غير صالح كما أنه لا يؤدى الى النتيجة المطلوبة ولكن الطريق الصالح لم يلبث أن يظهر جليا وعندئذ وضح أن الطريقة المثلى للتخلص من هذه السموم تنحصر فى ايقاف عملية التعفن نفسها ومن حسن الحظ سنرى أن هذه العملية سهلة ميسورة بل على جانب عظيم من البساطة

ايقاف التعفن

ولايقاف التعفن طرق شتى لا شك أن القارىء قد فطن اليها عند الكلام عن شروط حدوث هذه العملية . وبتغيير هذه الشروط نستطيع أن نتحكم فى حدوث العملية نفسه كما سيتبين ذلك فيما يلى

ويحسن أن نذكر القارىء أولا بتلك الملاحظة التى سبق أن أشرنا اليها وهى أنه يوجد بين التخمر والتعفن فضاء هائل وإننا نلجأ الى تخمير ما نريد حفظه من المواد وبذلك نحول دون تلفه وتعفنه

نستنتج إذن مما تقدم انه يكفى لايقاف التعفن أن نحل التخمر محله وأن نشجعه ما أمكن . ومن حسن الحظ نلاحظ أن عملية التخمر تعطى الوسط كمية من الحموضة تتوقف على الميكروب المولد له

والمواد المتخمره وهذه الحموضه لاتساعد على حدوث عملية التعفن بل بالعكس قادرة على ايقافها نهائياً وهذا هو السبب الحقيقي من قضاء العمليتين . يتضح اذن مرة ثانية ان تشجيع عملية التخمر كفيل بتخليص الجسم من عملية التعفن وما تنتجه من السموم . وهنالك ملاحظة أخرى يجب أن نذكرها قبل الكلام عن كيفية تشجيع عملية التخمر هذه وتتلخص فى أن الحموضة التى يولدها التخمر فى الامعاء الغلاظ تجعل حركة هذه الامعاء أكثر نشاطا وقوة ومن ثم تجعلها تطرد *الفضلات الغذائية* بسرعة مخلصة الجسم بذلك مما يمكن أن يكون فى نفس هذه الفضلات من السموم

تشجيع التخمر

رأينا فيما تقدم أن تشجيع التخمر هى الوسيلة الفعالة لتخليص الجسم من عملية التعفن وما تنتج من سموم وتشجيع التخمر أمر سهل ويتلخص من عدة وسائل سنذكرها فيما يلى

أول هذه الوسائل هى اعطاء الجسم مواد أكثر قابلة للتخمر منها للتعفن وقد ذكرنا أن مثل هذه المواد السكرية النشوية . ولكن ليس معنى ذلك أن نقتصر فى طعامنا عليها فان فى ذلك أشد الضرر . اذ ما يلزم لنا فى الواقع هو ايصال كمية من هذه المواد الى الامعاء الغلاظ لتتخمر فيها بواسطة ميكروب التخمر الموجودة هناك ولتعطى بذلك الامعاء الغلاظ المقدار الكافى من الحموضه لايقاف عملية التعفن وشل حركتها . ولكننا لو لاحظنا أن أغلب هذه المواد تمتص قبل وصولها الى الامعاء الغلاظ رأينا الصعوبة فى ذلك . ان أكبر كمية من السكر الذي نتناوله تمتص قبل وصولها الى المعى . من هنا نرى أنه يجب علينا البحث عن مواد لا يمتص ما فيها من سكر الا فى الامعاء الغلاظ ولقد تطلب هذا البحث وقتا طويلا ولكنه هدانا الى عدد من هذه المواد جدير بأن يعطينا أبهر النتائج ومن غريب الصدف أن تكون هذه المواد فى متناول الجميع فمنها التين الجاف والبلح الجاف والعنب الجاف « الزبيب » والجزر والبرقوق الجاف

يتضح مما تقدم فائدة تناول هذه المواد ففضلا عما فيها من الغذاء فان كمية السكر التى تحتويها لا تمتص الا فى الامعاء الغلاظ حيث تتخمر منتجه ما نبحث عنه من الحموضة الكافية لايقاف عملية التعفن وطرد ميكروباتها مع فضلات الغذاء الغير الصالحه

وليست هذه هي الطريقة الوحيدة لتشجيع عملية التخمر فقد هدانا البحث الي طريق آخر فقد رؤى أنه مادمنا قد تخلصنا من ميكروبات التعفن فانه من الحكمة أن تحل محلها ميكروبات أخرى ميكروبات التخمر القوية والغير الضارة بجسم الانسان . ان هذا لا يضمن لنا فقط استمرار عملية

التخمر على أحسن وجه انما يضع سدا منيعاً فى وجه ميكروبات التعفن من العودة ثانية الى الامعاء الغلاظ

وبالبحث وجد أن مثل هذه الميكروبات متوافر فى الطبيعة ومتوافر على الأخص فى الالبان المتخمرة أي الرائبة . ومن غريب الصدف أن نلاحظ أن طول العمر اي بلوغ المائة مثلا أمر عادى وملحوظ بكثرة بين الشعوب التى تعتمد فى غذائها على هذا النوع من الالبان وربما أمكن أن نلاحظ أن الاشخاص المعمرين فى عائلة ما هم أكثر أفرادها ميلا الى هذه المواد

مما تقدم يتضح لنا الفائدة التى نجنيها من وراء تناول مثل هذه الالبان ولقد شاع ذلك فى البلاد الاوربية حتى أصبح حلبة يتسابق فيها المتسابقون ويتهافتون عليها وأصبحنا نسمع بين عامة الشعب الاطراء الكثير لهذا اللبن

لعل القارىء مقتنع معي بان فى استطاعته الآن أن يطيل حياته اذا شاء وأغلب ظنى أنه تواق لذلك نزاع اليه . خصوصا وأن الطرق الموصلة الى ذلك آية من البساطة والسهولة

ماذا يكون لو اننا تجنبنا اللحوم والاسماك على العموم وخصوصا المحفوظ منها رفضلنا عليها النباتات والحبوب

ماذا يكون لو أننا تعودنا أن نتناول كل صباح قليلا من البلح الجاف أو التين الجاف أوالزبيب الجاف بعد غسلها أو الجراسيا المطبوخة

وماذا يكون لو أننا اكثرنا فى غذائنا من الالبان الرائبة نتناولها فى الصباح أو فى المساء . انها ليست كريهة الى الحد الذى يتصوره البعض منا ومهما كانت كريهة فلاشك أن الموت والشيخوخة المبكران أكثر كراهيه

نلخص ما تقدم فى قواعد بسيطة أولية حبذا لو تذكرناها دائما . اذا أردت أن تعيش طويلا فعليك بما يأتى

أولا — تجنب السموم تجنبا تاما واعرف أن من بينها الدخان والخمر

ثانيا — اعتن ما استطعت بغددك الصماء وكلما الم بك مرض اعرض نفسك على طبيب فى الحال ولا تكن مفرطا فى اى أمر من امورك

ثالثا — أكثر من الخضراوات بقدر اقلالك من اللحوم وتجنب بنوع عام كل المحفوظات

رابعا — احمد فى طعامك الى ما ذكرنا آنفا من المواد الغذائية ولا تأنف أن تعتاد تناول

طعام معين فى وقت معين ففى ذلك نفع كبير

خامسا — احذر الامساك وقاومه بكل قواك

سادسا — لاتظن أن أكل البلح والتين ينجيك من كل شيء اذا تهاونت فى القواعد الصحية الاخرى . ان ذلك سلاح قوى كما رأيت ولـكنه لايغنى فتيلا لو أهملت كل ما عداه من الاسلحة

العبرة

إن اطالة الحياة ممكنة ميسورة وهى ان لم تـكن ممكنة إلى الابد فانها مستطاعة ولو الى وقت . كم تجنى الانسانية من خير لو عمر بنوها إن الشيخوخة هى فى الواقع أخطر الامراض الاجتماعية وأشدها فتـكا بالانسانية . ولاشك أن الحياة لذيذة وهي جديرة بأن نحيا فى نشاط ومتعة وحبور إن الطريق لذلك سهل ميسور للجميع انما يجب قبـل ذلك أن نتسلح بسلاح من التبصر والتعقل ليس القدر هو كل شيء إن الانسان أيضا حقيقه أوضح مما يمـكن أن يـكون فى القدر من حقيقة . وعلى ذلك من يدرى ربما إذا شاء الانسان شاء القدر بل اننى أعتقد فى قرارة نفسى أن ارادة القدر من ارادة الانسان

قليل من الحـكمه يجعلنا نحيا أطول مانستطيع لو أننا كنا حقا نريد

لا لله ولا للشيطان

لصلاح الدين كامل

« من أمين (٢٥ سنة) الى فهمى وهو صديق له اكبر منه ببضع سنوات »

قصة فى خطاب

تلومني على ما ارتكبت فى حق توفيق مما نشأ عنه ذلك النفور الذى استحكم بيننا : أنا أعرف ياصديقى أنى الملوم وأنى المخطىء ! والمضحك أن كل ماحدث من خلاف قد خلقته أنا - وخلقته عمدا - ليعصف بما بيننا من صداقة ! ! ولاتعجب لتصرفى هذا ففى المسألة لغز سأكشف لك عنه فما تعودت اخفاء شيء عنك وعهدي بك كتوم للسر

توفيق قريبى وهو أيضا صديقى منذ الصغر . كنا لانكاد نفترق قبل زواجه . وبعد زواجه لم يتغير الامر كثيرا ، فكل ماحدث يكاد ينحصر فى أننا صرنا ثلاثة بدلا من اثنين . دائما كنا سويا ، أما فى منزلها أو فى نزهة ما . وكنا نمضى الوقت على أتم مانكون سروراً وصفاء . ما كان يخطر ببالى أن صداقتنا يمكن أن تذوى يوما من الايام !

الا أن بذرة سيئة قد نبتت فى نفسى وأخذت تنمو نمواً مضطرداً ! باختصار أحببت زوجته !.. أحببتها حباً قويا دفاقا وأعترف بانه حب حوامى دنس رغم أنه لم يدنس . بقيت طويلا أغالط نفسى ولكن عبثاً ، فقد تغلغلت تلك الرغبة المشتعلة فى دمى وعجزت عن اطفائها

كنت أعجب بكل جزء من أجزاء جسمها إعجاب اشتهاء . كنت أنتهز كل فرصة لأطيل النظر الى تقاطيعها محاولا - والرغبة تكاد تفترسنى - أن أستشف ببصيرتى ماوراء ملابسها الملاصقة المجسمة النامة . ما كان يتعرى جزء منها ، حين تنحنى لتلتقط شيئا أو ترفع ساقا لتضعها على الاخرى ، الا ويكون بصرى أسبق اليه من غطائه . ما كنت أنفرد بنفسى فى غرفة من غرف المنزل وأجد أمامى شيئا من ملابسها الا أخذته بين يدى أشمه وأشمه وأقبله . ما كان جسمى يلمس جسمها حتى تجتاح الشهوة كل كيانى . وما كنت لأفارق صديقى وزوجته فى الليل وأذهب الى فراشى حتى أتخيلها الى جانبى ، فاذا مانمت فكثيرا ما أحتضنها فى أحلامى

أما شعورها هى نحوى فلا أدرى كنهه بالضبط ! لاشك أنها كانت تلحظ ما أنا فيه . لايمكن أن يكون خلاف ذلك ، فالمرأة بطبيعتها حساسة وذكية جدا فى هذه المسائل . ولاشك أنها كانت

تحبني أو تحب عشرتي على الاقل . ولـكنها مطلقا لم تغرني أو تشجعني على مفاتحتها بالغرام! ولست أدري أكان ذلك لأن حبها اخوى محض أم هي كانت تبادلني شعورا مثل شعوري أو شبيه به ولكنها تـكبت عواطفها لما بيني وبين زوجها من علاقة ؟ !

وسأحكي لك حادثة وقعت قبيل اختلافي مع توفيق تفهمك حرج المركز الذي كنت قد وصلت اليه ، ولعلها هي الحادثة التي جعلتني أعجل بالقاء القنبلة التي هدمت صداقتنا :

كانت الساعة العاشرة والنصف مساء وكنا ثلاثتنا في المنزل لم نخرج تلك الليلة . كنا جالسين في غرفة النوم ، توفيق وأنا مشغولان في حديث لايهمها ، وهي ممددة على « الشيزلونج » تلهو بقراءة قصة . وبينا نحن كذلك اذا بزائر يدق الجرس فيتزل توفيق لاستقباله . والتفت ناحيتها فاذا بالنوم قد غلبها وسقط الـكتاب من يدها ... بينما ظل نور المصباح الـكهربائي الذي كانت قد وضعته بجانبها على « الـكومودينو » ليعينها على القراءة مسلط على صدرها – وقد أسفرت فتحة ثوبها عن منبت نهديها – يزيده فتنة واغراء . وما أدركت أنه لاثالث لنا في الغرفة وهي أمامي نائمة حتى فقدت تمالـكي ، فتقدمت نحوها في رجفة واضطراب أشبع بصري الزائغ النهم من جسمها الشهي الخلاب . ولم ألبث أن اندفعت دون وعي أحتضنها وأقبلها بوحشية في صدرها وفمها وعينها وشعرها وفي كل موضع منها حتى القدم ! حدث هذا دون أن تحتج أو تبدي حركة مع أنها لاشك قد أستيقظت ! ! . . . ولولا بقية من العقل والارادة لعاد الزوج الصديق فوجد نفسه أمام أجرأ وأشنع جريمة يمكن أن ترتكب

والغريب أنه بعد تلك الليلة لم يتغير الموقف . كل ماجد أنها صارت تتحاشى التقاء نظراتنا وترتبك إذا ماانفردنا ولو لبضع ثوان . أما أنا فقد ازدادت حالتي سوءاً . صرت كالمحموم ، المحموم الذي يوقن أنه لن يخفف من حرارته المتقدة القاسية سوى أن يغمر حواسه الثائرة المريضة في ذلك الجسم الذي يراه طول الوقت متماوجا أمام عينيه ويشمه زكيا ، المحموم الذي تحرقه نار الحمى ويرى أمامه الدواء الشافي ولايجرؤ على ارتشافه !

وانقلب الامر إلى جهاد وعراك بيني وبين نفسي – جهاد وعراك عنيف هدام – أفسد حياتي بل كاد يقضي عليّ . كان مابيني وبين توفيق من قرابة وصداقة يجعلني أصغر في عيني نفسي حتى لأكاد أتلاشى عند ما أفكر في أن أنشىء بيني وبين زوجته علاقة ، الا أن كبح تلك الرغبة الجامحة التي تدفعني نحوها كان يـكلفني كثيرا !

وأخيرا رأيت أن هذه حال لايمكن أن تستمر ... ولاخلاص – لاحل لهذا المشكل – مادامت علاقتي بتوفيق قائمة مابقيت صحبتنا موثقة ، طالما ألقاه وألقى زوجته كل يوم تقريبا فان تخلفت يومين متتاليين جدّاً في البحث عني حتى يكمل مجلسنا !.. تخلقت هذا الخلاف الذي سمعت خبره ، خلقته خلقا لأنجو بنفسي من هذا الموقف الشاذ المضطرب ، لأقضي على تلك الصحبة العرجاء ، لأفرق هذا المجلس المذبذب الذي لايرضى الله ولا يرضى الشيطان !

كيف أرى العالم

بقلم البرت اينشتين صاحب نظرية النسبية

كم يبدو غريبا وشاذاً موقفنا نحن البشر من أنفسنا . ان كلا منا ليس على الارض إلا لزيارة قصيرة يجهل سببها ولكنه يعتقد فى قرارة نفسه أنه يشعر بها ويحسها أبداً . ودون أن ندفع التفكير إلى أبعد من ذلك نجد أن لنا رأيا معينا فى الحياة اليومية . إننا موجودون على الارض لأجل الآخرين وليس لأنفسنا فقط . أولا لأجل أولئك الذين تكون ابتسامتهم وسرورهم أساس كل سعادة يمكن أن نحسها وأيضا من أجل تلك الجماهير الغفيرة التى نجهلها والتى تربطنا وإياها روابط العاطفة والشفقة والرحمة . واليك ما أفكر فيه يوميا مراراً عديدة . إن حياتى الخارجية وكذلك حياتى الداخلية تعتمدان على عمل معاصرى واسلافى . ولذلك فانه يجب على ان أسعى جهدى فى أن أقدم لهم أعمالا مفيدة بنفس النسبة التى تسلمت والتى لا أزال أتسلم بها إلى الآن من أعمالهم هم ولذلك فاننى أريد من صميم فؤادى بل اننى محتاج إلى أن أعيش عيشة هى أبسط ما أستطيع . وكثيرا مايحز الالم فى نفسى حزاً لاننى أطلب وأستهلك من اعمال الآخرين اكثر من اللازم

اننى أعتقد وأومن وأشعر بذلك فى أعماق نفسى أن الفروق بين الطبقات الاجتماعية ظالمة أشد الظلم وليس فيها أى أثر للعدل أو النزاهة وانها فى آخر الامر تعتمد على السلب والنهب والاغتصاب الدنىء . إننى أومن بكل نفسى أن حياة متوسطة معتدلة لاتعرف الغلو فى أى أمر من أمورها صالحة لكل منا لأجسادنا ولأرواحنا معا

إننى لا أومن بحرية الانسان بمعناها الفلسفى . ليس الانسان حراً كما نتوهم فنحن نعمل ليس تحت تأثير الضغط الخارجى فحسب بل تحت تأثير الحاجة الداخلية أيضا . إن كلمة شوبنهاور «لاشك أن الرجل يستطيع كل مايريد ولكنه لايستطيع أن يريد كل مايريد» قد تغلغلت فى أعماق نفسى منذ الصبا وكانت أبدا عزاء لى فى مصاعب الحياة وشدائد الوجود كما كانت منبعا فياضا للصبر والاحتمال . إن الشعور بما تقدم يخفف عنا وطأة الاحساس بالمسئولية الذى يجهدنا غالبا ويضنينا . كما أنه يجعلنا اكثر رحمة فى معاملة أنفسنا أو الآخرين إذ يدعونا إلى التساهل كثيرا فلا نأخذ أنفسنا أو الآخرين بالعنف والصرامة والشدة الزائدة كما أنه يهىء لنا فهما جديدا للحياة يمتاز بانه يترك محلا للانشراح والسرور أو الفرح والضحك

لقد ظهر لي دائما أن الانشغال والاهتمام والتفكير في الغرض والمعنى من وجودنا أو وجود الآخرين أمر لامعنى له . ومع كل فلكل منا من الناحية الاخرى مثل أعلى يتعقبه في أعماله ويستلهمه في أحكامه ومحاولاته . من ذلك رأيت أن السعادة أو الرفاهية ليست الغرض الاسمى أو الغاية القصوى من الحياة . إننى أسمى هذه القاعدة الاخلاقية بالمثل الاعلى للشهوانيين من البشر الذين لايلوون على شيء ولايهتمون بشيء عدا اشباع لذاتهم الجسدية . إن الامثلة العليا التى اهتديت بهديها والتى أنارت لى سبيلى والتى ملأتنى أبدا شجاعة ساهرة وعزما اكيدا لم تكن غير الخير والجمال والحق . ولو لم أحس ذلك الاحساس العميق الفياض بالتوافق بينى وبين أولئك الذين أقاسمهم العقيدة والرأي وأشترك وإياهم فى الحياة أو لو لم تكن فى تلك الرغبة الملحة فى تحسس المجهول والبحث عنه سواء فى ميدان الفن أو الميدان العلمى لما ترددت لحظة فى القول بان حياتى فارغة خاوية . إن الاغراض العادية التى ترمى اليها مجهودات الكثيرين من البشر من غنى وثروة أو جاه وسلطة أو نجاح ورفاهية قد ظهرت لى دائما وذلك منذ سنين حداثتى جديرة بالاحتقار والازدراء

وعلى العكس من شعوري العميق وإيمانى القوى بالعدل والواجبات الاجتماعية فانى لم أحس أبدا بحاجة التقرب إلى الناس أو إلى جمعياتهم أيا كانت . اننى أشعر فى نفسى كأنى حصان جامح يريد أن يجري وحيداً والحق أننى لم أحب لحظة من كل قلبى لا الحكومة ولا أرض الوطن ولا جماعة الاصدقاء والمحبين ولا حتى جماعة الاقارب المقربين بل بالعكس كنت أجد دائما نفورا شديدا من كل هذه وكم من مرة احسست إحساسا عميقا باننى غريب عنها . إننى كنت أجد فى نفسى نحو هذه العلاقات رغبة ملحة فى الوحدة والانعزال . وهذا الشعور وتلك الرغبة تزدادان يوما عن يوم وعاما عن عام . إننا لانلبث أن نصطدم دون أسف بالحد الذي يحد اتفاقنا وسلامنا مع الجار . إن شخصا كهذا يفقد ولاشك كثيرا من حسن العاطفة ولين المعاملة بالنسبة للآخرين كما قد يزيد بذلك على نفسه كثيرا من الهموم والمشاغل ولكنه يكسب نظير ذلك استقلالا تاما فيما يتعلق بآراء وعادات واحكام الآخرين من أنظاره وامثاله . وهولذلك ليس مضطرا لأن يهيء توازنه الشخصى على أسس متغيرة تفيد تلك الاراء والعادات والاحكام

إن مثلى الأعلى فى السياسة هو المثل الأعلى الديموقراطى . اننى أعتقد أنه يجب أن يخدم كل انسان فى شخصيته وأن لا يؤله أو يدلل أحدا كائنا من كان . انه من سخرية القدر أن يشهد لى معاصرى بكثير من التبجيل والاعجاب الذى لا أستحقه علما بان ذلك ليس ناتجا عن خطأ ارتكبته . وأغلب ظنى أنه ناشيء عن تلك الرغبة التى لايمكن تحقيقها عند الكثيرين فى فهم القليل من الافكار التى

توصلت اليها بفضل قواى الضعيفة فى أثناء صراع دام طويلا

اننى أعرف أنه لـكى تنتظم أمور جماعة ما فمن الضرورى أن يضطلع واحد فقط بأعباء ادارتها على مايتطلبه ذلك من انتباه وتفكير وتنفيذ . وأن يتحمل ذلك الشخص مسئولياتها المختلفة ولكن لايجب أن يكون ذلك مبرراً لاكراه أولئك المحكومين وسوقهم جبرا وقسوة إذ يجب أن يكون لهم الحق فى أن يختاروا من يريدونه رئيساً عليهم . إننى مقتنع أشد الاقتناع بأن النظام الاوتوقراطى لايلبث أن ينصرع وينهار فى قليل من الزمن . وفى الواقع فان السلطة المطلقة والسلطان المغتصب تجذب دائما نحوها ضعيفى الخلق والمنحطين ولذلك فاننى مقتنع أيضا أشد الاقتناع أن المستبدين من ذوى العبقرية والنبوغ لا يعقبهم فى الاستبداد إلا الاوباش الانذال ومن أجل هـذا كنت العـدو اللدود للنظم السياسية التى تشبه تلك النظم الاستبدادية التى نراها الآن قائمة فى كل من روسيا وايطاليا . ان السبب فى تزعزع الثقة الذى يحوط النظام الديموقراطى اليوم فى اوربا لايجب أن يعزى الى الفكرة الاساسية فى هذا النظام السياسى ولـكنه لنقص الثبات والاتزان فى رؤوس الحكومات وأيضا الى الطريقة المتبعة فى الانتخابات والتى لاتتحدد فيها شخصية الناخب . وأعتقد أن الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية قد اهتدت من هـذه الوجهـة الى الطريق القويم . فلهم رئيس مسئول منتخب لمدة طويلة من الزمن وله من السلطة مايمكنه من حمل المسئولية الملقاة على عاتقه فعلا . ومن الناحية الاخرى فاننى أقدر تقديرا عظيما تلك العناية المعطاة للاشخاص حسب نظامنا الحكومى فى حالة مرضهم أو حاجتهم . وفى رأيى وحسب عقيدتى ان العنصر المهم فى كل الانسانية ليس الحكومة إنما الشخص المبدع ذو الشعور الحى أو بعبارة أخرى الشخصية . انها هى التى تخلق النبل والقدس بينا تظل الجماعات غبية الفكر وغليظة الاحساس

ونعود فى هذا الموضوع الى الكلام عن أسوأ البدع التى اكرهها وأمقتها . تلك التى تقوم بها الجماعات المسلحة والتى يكونها النظام العسكرى . اننى أحتقر من أعماق نفسى كل من يقبل راضيا مسرورا أن يسير فى صفوف منتظمة خلف موسيقى عسكرية وأعتقـد أنه لايمكن أن يـكون قد أعطى مخا كاملا يفكر إلا عن طريق الخطأ أو نخاعا شوكيا يـكفيه تمام الكفاية . وكم هو أحب علينا أن نخفى باسرع مايمكن هذا العار الذي لحق بالمدنية . كم آمره البطولة المصطنعة وسبل الاعمال الوحشية الغشيمة وروح الوطنية القاتلة . إننى اكره كل ذلك بكل ومن كل أعماق نفسى كم تظهر لى الحرب وضيعة مجردة عن كل احساس نبيل جديرة بكل احتقار ومقت . اننى أفضل أن أقطع إربا عن أن أشترك فى عمل بائس ورديء كهذا . وعلى الرغم من كل الظروف فاننى كلما فكرت فى خير الانسانية ازددت اقتناعا أن هذا الـكابوس الجاثم على صـدر الانسانية كان من

الممكن أن يختفى من زمن طويل مضى لو أن الرأى السليم والفكر الطبيعى للشعوب لم يفسده المغرضون وذوو الاطماع من السياسيين ورجال الاعمال بواسطة المدرسة أو الصحافة

إن أجمل ما يمكن أن نتمتع به هو الناحية الخفية من الحياة . ان هذا هو الاحساس العميق الذي نحسه عند الاقتراب من أصول الفن ومهده أو من العلم الحقيقى . والرجل الذى اضحى لايستطيع أن يحس بالدهشة والاستغراب هو رجل ميت قد انطفأ نور عينيه . ان تأثير الخفى أيا كان ممزوجا بالخوف قد خلق الديانة أيضا كما دلهم الفن وأوجد العلم . ان احساسنا أن هناك شيئا لا يمكننا أن نخترقه أو نكشف الستار عنه وعن أسراره ثم معرفتنا فوق ذلك بالمظاهر التى تضعنا أمام ذلك الادراك العميق والذكاء الكلى ثم ذلك الجمال الباهر الاخاذ وجها الى وجه تلك المظاهر التى ليس من سبيل لنا الى فهمها وادراكها إلا فى أبسط صورها وأسهل أشكالها . أقول ان احساسنا ذلك الاحساس واحاطتنا علما بتلك الظواهر هما عندي أسس التدين الحق . وفى هذا المعنى وحده أعد نفسى بين أعمق المتدينين . إننى لا أستطيع أن أصور لنفسى إلاها يعاقب ويكافىء خلائقه أو يسير ارادته علينا كما نسير ارادتنا نحن على أنفسنا . إننى لا أريد ولا أستطيع حتى لو أردت أن أتصور انسانا يحيا بعد موته الجسدى . انها لنفوس ضعيفة تلك التى تعـذى نفسها تحت تأثير الخوف أو الانانية المضحكة بافكار شبيهة بهذه . إنه يكفينى لذة أن أتمتع بالشعور بغموض أزلية الحياة ، أن أعى وأن أحس بهاء كل الموجودات وجمال بنائها ثم أن أكافح وأجالد وأصارع بنشاط وجد حتى احصل على قطرة مهما كان صغرها ومهما كانت ضئالتها من ذلك الادراك الكلى الذى تشمل مظاهره كل الطبيعة

ترجمة . ر . ش

سيجموند فرويد

الاحتفال بالذكرى الثمانين لميلاده

للدكتور صبرى جرجس

فى السادس من شهر مايو الماضى احتفل بالذكرى الثمانين لميلاد العالم النمساوى الاشهر سيجموند فرويد . اذ ولد فى ٦ مايو سنة ١٨٥٦ فى بلدة فريبرج (من أعمال النمسا يومئذ وتشيكوسلافاكيا الآن) من ابوين يهوديين

وقد اتخذ مدينة فينا مقاما له وبدأ منذ أكثر من أربعين سنة ينشر ملاحظاته وآراءه التى جعلت اسمه معروفا فى أنحاء العالم أجمع والتى ستخلده فى تاريخ تقدم التفكير الانسانى

وقد وصف فرويد كيف بدأ اهتمامه بدراسة الامراض والاضطرابات العضوية التى تصيب الجهاز العصبى حين راعه فشل العقاقير وطرائق العلاج الاخرى فى شفاء هذه الامراض وحيرة المرضى فى الانتقال من طبيب إلى آخر دون جدوى . وقد زار شاركوت الطبيب ذا الشهرة الذائعة فى الامراض العصبية سنة ١٨٨٦ ثم نشر ملاحظاته عن الهستريا فى الرجال وعن امكان احداث الشلل الهستيرى بواسطة الايحاء عقب عودته إلى فينا فأثارت هذه الآراء عاصفة قوية من السخرية والاستهزاء وبعد ذلك زار برنهايم وليبولت فى نانسى ونشر عقب هذه الزيارة بالاشتراك مع بروير كتابه « دراسات عن الهستريا » تضمن شرح نظريته عن تأثير الذكريات الخبيثة بواسطة التنويم كطريقة من طرائق العلاج

ولكنه لم يقنع بهذه النتائج التى وصل اليها بل دأب على العمل حتى توصل الى اكتشاف طريقة توافق الآراء التى تعد أهم أركان نظرية التحليل النفسى . وبذلك أصبح ذلك الجزء غير الواعى من العقل — وهو الذى طالما تغنى به الشعراء ونشده الفلاسفة على مر العصور والاجيال — لا مفتاحا لتعليل كثير من الاعراض التى تظهر فى بعض الاضطرابات العصبية النفسية فحسب بل

وناحية من نواحي النشاط الانساني في الاحوال والظروف العادية أيضا . هذا فضلا عن ان محتوياته لم تبق موضعا للنظر والتأمل كما كانت بل موضعا للبحث والاستقراء

وقد أصبح التحليل النفسي أمراً معترفا به في كل النواحي التي تتصل بالتفكير والسلوك الانساني . بل لقد تغلغل في الطب أيضا حتى لم يسع معارضوه إلا قبول الكثير من تعاليمه كما هي دون محاولة الرجوع إلى أصلها ومنشئها . وقد وجهت إلى التحليل النفسي في وقت ما تهمة عجيبة هي أنه يسفه العقل والمنطق : ولكن هذا غير صحيح فانه بتقديره للقوى العاطفية غير الواعية انما يقوى وظيفة العقل إلى حد كبير . كما انه حورب في كثير من الممالك الاوربية ومنعت الكتب التي ألفت عنه من النشر والتداول فيها . وهذه المعارضة التي لقيتها نظرية التحليل النفسي تحتاج في ذاتها الى الشرح والتعليل . وهذا الشرح لا يعسر على فهمنا اذا لاحظنا أن التعاليم التي نادى بها فرويد قد غيرت بعض آرائنا تغييراً كبيراً . . بل قد تناولتها بالثورة والانقلاب في بعض الاحيان . وقد تناولت هذه التعاليم والنظريات شرح واظهار الدوافع غير الواعية في سلوكنا وهذا أمر يتعارض مع كبريائنا . ولهذا لا الى الحاجه في تأكيد التأثير الجنسي في كل أعمالنا يجب أن نعزو المعارضة التي اصطدمت بها آراؤه . ولا ريب في أن هذه المعارضة مضافا اليها العزلة التي أرغم الرجل عليها سنوات طويلة قد أثرت على موقفه في الميدان العلمي تأثيرا كبيرا . ولكنه لم يذعن أو يخضع للغير كما انه لم يحاول قط أن يربط نتائج بحوثه بالنظريات السيكلوجية العامة . ولهذا السبب لم تلق آراؤه تأييدا في غير الدوائر الطبيبة حيث تقابل الآن بترحيب يختلف عن الكراهة السابقة . والعجيب ان هذا التحول في تقدير آرائه لم ينتج عن بحثها ومناقشتها فان فرويد لم يوجه الي نقاده رداً مباشراً قط كما ان اتباعه ومؤيديه في كثير من الممالك لم يكلفوا أنفسهم مشقة الدفاع عن نظرياته . والواقع ان هذه الآراء والنظريات لم تقابل بنقد جدى نافع إلا في القليل النادر . لان النقد الجدى لمثل هذه النظرية يتطلب معرفة الملاحظات التي قامت على أساسها وهذه المعرفة بدورها تتطلب أن يقوم الناقد بعمل هذه الملاحظات . ولذلك فقد انحصر كل النقد الموجه اليها في انكارها وعدم الاعتراف بها فنمت وانتشرت وهي خالية من ذلك النقد الصحيح الذى يعد وجوده حافزا ورادعا لكل بحث علمي . ولكن على الرغم من ذلك أثبت فرويد على الدوام انه كفيل بمراجعة آرائه وتصحيحها أو العدول عنها في بعض الاحيان واذا لم يكن في كتاباته كثيرا من النظر والتأمل فانها تمتاز من ناحية أخرى بادراك كاتبها للصعوبة التي يعانيها الرجل

ذو التعليم والعقائد العادية فى فهم آراء ونظريات تتصل بميدان بعيد عن دائرة حياته وتجاربه الواعية

وقد شبه البعض فرويد بدارون . والواقع ان كليهما يتفق فى المعارضة الشديدة التى لقيتهما آراؤهما ونظرياتهما لاول عهدها بالظهور وفى وعورة الطريق الذى اجتازه كل منهما للوصول بآرائه إلى حالة الثبات والاستقرار . وإذا كان داروين قد جرح كبرياء الانسان من ناحية أصله ومنشئه فان الضربة التى نالته من فرويد كانت أقوى وأعمق أثراً لانها تناولت آراءه ومعتقداته عن ذاته . وقد بدأنا الآن ننقه من الصدمة التى تعقب الرأى الجديد وبدأنا ندرك ان آراء فرويد انما تحدد عصرا جديدا من عصور البحث والاكتشاف فى تاريخ العلم والتقدم الانسانى

كيف يجب أن نعيش

من الناس من يعيش فى الماضى : جل وقته ضائع فى التفكير وأعادة التفكير ، مرارا وتكرارا ، فى كل مامر به سارا كان اومنغصا هاما كان أم تافها . وهذا مرض يسببه عادة ضعف الأعصاب وضعف الأرادة ينميه

ومن الناس من يعيش فى المستقبل : غارقا فى بحر لانهائى من الاحلام والآمال . وهذا مرض أيضا يفسد حياة كثير من الشباب ، والشباب الذكى النابغ !... اذ أنه حين يتمكن هذا المرض . يجعل الانسان عاجزا عن العمل ، ملولا ، يريد ان يصل وان يصل سريعا دون ان يسير على الدرب

ومن الناس من يعيش فى الحاضر ، والحاضر فقط : هو ابن ساعته لايشغله مامضى ولايهمه ماهو آت . وهذا فى الغالب يكون سعيدا ، سعيداجدا ، إلا أنه حقير لاشخصية له بل هو أقرب الى الحيوان منه الى الانسان

أما الواجب ، فهوان نعيش فى الماضى والحاضر والمستقبل معا : رابحين من الماضى تجاربه ، والتجارب خير مدرسة تحثنا الى الرفعة بآمال واسعة ، وكل عمل عظيم كان قبل تحققه أملا ... على ان لاننسى بين طيف الماضى وخيال المستقبل جسم الحاضر ، لأن النجاح لايكون ألا بالعمل والعمل لايكون ألا فى الحاضر !

ذو التعليم والعقائد العادية فى فهم آراء ونظريات تتصل بميدان بعيد عن دائرة حياته وتجاربه الواعية

وقد شبه البعض فرويد بداروين . والواقع ان كليهما يتفق فى المعارضة الشديدة التى لقيتهما آراؤهما ونظرياتهما لاول عهـدها بالظهور وفى وعورة الطريق الذى اجتازه كل منهما للوصول بآرائه إلى حالة الثبات والاستقرار . وإذا كان داروين قد جرح كبرياء الانسان من ناحية أصله ومنشئه فان الضربة التى نالته من فرويد كانت أقوى وأعمق أثراً لانها تناولت آراءه ومعتقداته عن ذاته . وقد بدأنا الآن ننقه من الصدمة التى تعقب الرأى الجديد وبدأنا ندرك ان آراء فرويد انما تحدد عصرا جديدا من عصور البحث والاكتشاف فى تاريخ العلم والتقدم الانسانى

كيف يجب أن نعيش

من الناس من يعيش فى الماضى : جل وقته ضائع فى التفكير وأعادة التفكير ، مرارا وتكرارا ، فى كل مامر به سارا كان اومنغصا هاما كان أم تافها . وهذا مرض يسببه عادة ضعف الأعصاب وضعف الأرادة ينميه

ومن الناس من يعيش فى المستقبل : غارقا فى بحر لانهائى من الاحلام والآمال . وهذا مرض أيضا يفسد حياة كثير من الشباب ، والشباب الذكى النابغ !... اذ أنه حين يتمكن هذا المرض . يجعل الانسان عاجزا عن العمل ، ملولا ، يريد ان يصل وان يصل سريعا دون أن يسير على الدرب

ومن الناس من يعيش فى الحاضر ، والحاضر فقط : هو ابن ساعته لايشغله مامضى ولايهمه ماهو آت . وهذا فى الغالب يكون سعيدا ، سعيداجدا ، إلا أنه حقير لاشخصية له بل هو أقرب الى الحيوان منه الى الانسان

أما الواجب ، فهوان نعيش فى الماضى والحاضر والمستقبل معا : رابحين من الماضى تجاربه ، والتجارب خير مدرسة تحثنا الى الرفعة بآمال واسعة ، وكل عمل عظيم كان قبل تحققه أملا ... على ان لاننسى بين طيف الماضى وخيال المستقبل جسم الحاضر ، لأن النجاح لايكون ألا بالعمل والعمل لايكون ألا فى الحاضر !

دزرائيلي : وزير بريطاني

كتاب تأليف الكاتب الفرنسي أندرية
موروا وتلخيص الاستاذ ديمتري يني

للتاريخ

فى سنة الف ومئتين وتسعين أفرنجية طرد ادوارد الاول ملك انجلترا اليهود من بلاده . ونظرا لازدياد كراهية الشعب لهم اضطر أكثر من ستة آلاف نسمة أن يغادروا انجلترا . ورغب الملك فى أن يتركوها فى سلام دون أن يكدر صفوهم أو يزعجهم أحد . ولم يشذ عن هذه الرغبة سوى بحار أغرق ركاب سفينته

وفى سنة الف وثلثمائة وستة قرر الملك فيليب تحت ضغط حاجته للمال أن يرحب بهم وأن يفتح لهم أبواب بلاده حيث ظلوا أكثر من قرنين فى سلام . إلا أن اسبانيا بدأت بعد ذلك تقفل أبوابها فى وجوههم فأخذ أهل فينسيا وامستردام وفرنسا يرحبون بهم كما أخذت انجلترا ذاتها تعطف عليهم

وفى سنة ١٦٤٩ قدم لورد « فيرفكس » للبرلمان طلبا باعادة شعب اسرائيل إلي انجلترا وأيد طلبه « كرمويل » ووقعه « شارل الثانى » ومن ذلك الحين حتى نهاية القرن السابع عشر رحلت جماعات صغيرة من يهود البرتغال واسبانيا الى لندن

وفى سنة ١٧٤٨ شاهدت هذه الجماعات شابا ايطاليا يدعى بنيامين دزرائيلي كان قد بدأ حياته فى فينسيا ولكنه رأى أن يرحل الي انجلترا طمعاً فى أن يصيب نجاحا أوفر . ولشد ماصادف فى حياته الجديدة من صعوبات جمة انتهت بخسارته ودماره لولا زواجه الثانى من امرأة من أسرة كبيرة كان لمالها الوفير عون كبير فى حياته

وكان بنيامين هذا رجلا رقيقا لطيف المعشر يتكلم الانجليزية فى لهجة ايطالية ظريفة . قلما يختلط خارج عمله بيهودى آخر وكانت زوجته تعتقد انها لو كانت مسيحية لبلغت بفضل ما تحمل

من ثروة ضخمة وما لها من جمال فتان الصف الأول فى المركز الاجتماعى . ولعل هذا ماحدا بزوجها الى أن يمتنع عن ذهابه للمعبد رغم الهدايا الكثيرة التى كان يقدمها لاله اسرائيل

وكان لبنيامين دزرائيلي وساره زوجته ابن واحد يدعى اسحق شاحب اللون خجول . وكان جل غرضهما أن يساهم فى عمل أبيه ويكافح معه . ولكن سرعان ماخاب رجاؤهما وتقديرهما حين تبينا انه سوف لايصلح لهذا النوع من الحياة . فقد نشأ مولعا بالقراءة ولعا أيقظ فى أمه روحا تهكمية ساخرة . فلما ان بلغ الثالثة عشر من عمره كتب الشعر . وكان لهذا أسوأ الأثر فى نفس أبيه فقد كان لايزال يحتفظ فى بيته بصورة فنية تمثل شاعراً يموت جوعا فى غرفة حقيرة

وأخيرا عمد الاب إلى ارسال ابنه الى هولندا وفرنسا حيث قضى أربع سنوات تحت ارشاد مرب استطاع أن يخلق منه شخصا حر التفكير وان يجعل منه تلميذا لأحسن فلاسفة فرنسا « فولتير » و « روسو »

وبدأ يتسرب الرجاء إلى نفس أبيه ولكن لشد ما انهار أمله وخاب رجاؤه حين علم بقصيدته التى مطلعها « التجارة تفسد الجنس البشرى » ومن تلك اللحظة رأى الاب أن يترك ابنه وشأنه يعيش كما يريد ويبغى

وانتهج اسحق لنفسه خطة يسير عليها فكان يصرف أيامه فى غرفة المطالعة فى المتحف البريطانى حيث لم يكن يؤمها فى ذلك العصر أكثر من خمسة أو ستة من القراء

وذات يوم وجد نفسه مغمورا بقصاصات من الورق كان يدون عليها ملاحظاته وآرائه استطاع أن يؤلف منها مجموعة قصص استهل بها حياته العملية

وتزوج فى الخامسة والثلاثين من عمره بامرأة ظريفة طيبة القلب من أسرة ايطالية يهودية كأسرته . وكان جل غرضه من هذا الزواج أن يلقى عن عاتقه شئون المنزل ليتسع له وقته للتفكير والاطلاع والقراءة

المدرسة

ورزق اسحق ولدا دعاه بنيامين ثم بنتاً دعاها سارة تيمناً بوالديه . وساد الوئام بين الولد وأخته منذ الطفولة . وكانا يعبدان جدتهما ، شديدى الاعجاب بأبيهما وأسلوبه الكتابى . مقتنعين بانه من العبث أن يهتم لشأن من شئونهما أو أن يعنى بهما عنايته بكتبه وأوراقه ومكتبته

واعتادت الاسرة بأكملها أن تزور كل أسبوع دزرائيلي الجد مشيا على الاقدام . وكانت الجدة تدلل حفيديها دون أن تفكر في تقديم بعض الحلوى لهما . أما الجد فكان يمنحهما قطعة من النقود ثم يعزف لهما قطعة موسيقية ويتحدث لهما بعد الانتهاء منها عن ايطاليا حديثا شائقا وكان بنيامين الطفل يعجب بقصص جده وينصت لما حدث منها خاصة في فينسيا

واستقرت هذه الخيالات والصور في ذهن بنيامين الطفل حتى اذا شاء القدر له أن يستلقي في حديقة منزله تحت ظل أشجارها الوارفة استسلم للخيال والاحلام

وبدأ بنيامين حياته الدراسية صغيرا جدا وتتلمذ أولا على الآنسة « رابير » ثم عهد بعد ذلك في تربيته الى القسيس « باتيكاني » وفطن بنيامين الى الفارق الديني بينه وبين سائر زملائه في المدرسة حين كان يركع الاولاد كل صباح يصلون صلاتهم العامة . وبدأ من تلك اللحظة بنيامين وأخته يتحدثان كل مساء عن اليهودية والمسيحية . وكانا يعجبان جدا من الانظار وعبارات النقد التي كانت توجه اليهما من زملائهما . وعبثا حاولا أن يعرفا شيئا من والدهما فقد كان يعتقد أن التحدث في الدين أمر تافه بيد انه كان يشعر في الوقت ذاته بالفخر حين كان يذكر تاريخ بني جنسه

واستمر الوالد يدفع اشتراكاته في المعبد حتى سنة ١٨١٣ حين رفض ما عرضه عليه يهود لندن من اختياره رئيسا لطائفتهم . فلما أن أصر على رفضه حكم عليه المجلس بغرامة اربعين جنيها ابى اسحق ان يدفعها ايضا وانقضت ثلاث سنوات في هدوء وسلام غير ان جماعة اليهود اصدروا عليه الحكم بالغرامة للمرة الثانية . وكان والده قد مات خلال هذه الفترة وانقطعت بموته صلة الاسرة بجماعة اليهود وانتهز اسحق هذه الفرصة وكتب لمجلس الطائفة يطلب محو اسمه من سجلاتهم

انقطعت صلته باليهود ولكنه لم يعتنق المسيحية غير أن واحدا من أصدقائه أشار عليه ان يعتنقها حرصا على صالح أطفاله ومستقبلهم وحفظا لحقوقهم المدنية كما كان متبعا في ذلك العصر وكان اسحق شديد التقدير لصديقه وبدأ طفلاه يقرآن كتب الصلاة كل مساء ويصليان في كنيسة « سانت اندروس »

وكان بنيامين في ذلك الوقت قد بلغ الثالثة عشر من عمره . وبدأ والداه يفكران في المدرسة التي يجب أن يلحق بها وتذكر اسحق رجلا كان قد التقى به عند بائع كتب يجيد اليونانية شديد الولع بالمطالعة واستقر الرأى على أن يعهد لهذا الرجل تربية ابنه . وكانت مدرسة الدكتور

« كوجان » بناء قديما يضم القليل من الاولاد وكان بنيامين أضعف من زملائه في اللاتينية واليونانية ولكنه كان أشدهم ذكاء في الابتكار قادرا على الكتابة والتأليف حتى تداول زملاؤه عباراته واسلوبه

وبلغ بنيامين الخامسة عشر واضطر والده ان يخرجه من المدرسة كرغبة صديقه الدكتور « كوجان » كما دلت الاختبارات على أن المدرسة لاتصلح له وخاف ان يلتحق بالجامعة فيصيبه فيها ما أصابه في المدرسة من التعصب والكراهية . وأيقن بنيامين بعد ان سرد في ذهنه ذكريات طفولته ان الحياة سوف لايحتملها اذا لم يكن عظيما بين الرجال . ولكن اين من يفسر له الحياة والطرق التى يجب أن يسلكها

وانقضت أسابيع وطد بعدها العزم على أن يبنى من جديد بناء مستقبل يكفل له نجاحه ويظهر للملأ نبوغه وبدأ يتردد كل صباح الى المكتبة ويعود منها محملا بالكتب والاوراق . وامتلأت مذكراته اليومية بملاحظات شتى وانتشرت اوراقه وكتبه في سائرغرف البيت دون ترتيب أو تنظيم . وأعجب والده باهتمام ابنه بتاريخ فينسيا ومؤامراتها وتقاليدها الدينية والجمعيات السرية وكان اسحق يدين بالمذهب القائل « زد نفسك ثقافة لا حبا في التسلية وانما رغبة في العمل »

وبدأت ابحاث بنيامين ومطالعاته تثير في نفس ابيه الخوف على مستقبله . واتفق ان طلب « مايلز » صديق والده منه ان يتخذ ابنه سكرتيرا خاصا له وارتاح الوالد لهذا الرأى

وخاف بنيامين ان تقضى عليه هذه الفكرة وان يقبر نفسه في مكتب محام الا انه أدرك انه تحقيقا لضالته المنشودة من النجاح والعظمة يجب عليه ان يتصل بالناس وان يدرس عن كثب شئونهم وأحوالهم سيما وقد ذكر له التاريخ اناسا كثيرين عرفوا بعقولهم الجبارة ولكنهم فشلوا في الحياة لأنهم آثروا العزلة والوحدة

حياة عملية

وبدأ حياته العملية واخذ يختلط برجال المال والتجارة والاعمال ويشترك في الحفلات التي كان يقيمها رئيسه ويزج بنفسه بين حسان الفتيات ولذ له هذا النوع من الحياة وبدأ يغتبط بها

وحدث ذات يوم ان صحبه والده ليتناولا العشاء مع ناشر كتب يدعى « جون مرى » وكان جل غرض ابيه أن يهيىء له فرصة طيبة يستمع فيها لاحاديث خير الكتاب . وهناك تعرف « بصامويل

روجر » و « توم مور » . ولاحظ بنيامين ان كثيرا من اصدقاء ابيه قد اعجبوا بنبوغه واجوبته بينما عاب عليه البعض الآخر وقاحته وسماجته

وبدأ يضجر من عمله فسافر الى المانيا مع ابيه فى رحلة قصيرة زار خلالها منتديات المانيا ومسارحها

وتعرف بنيامين خلال الشهور الاخيرة من عمله فى « بيت فريدريك » بعملاء كثيرين استطاعوا ان يجمعوا ثروة واسعة من مضارباتهم فى مناجم امريكا الجنوبية . وكانت المستعمرات الاسبانية والبرتغالية والمكسيك وبوليفيا وبيرو والبرازيل فى ذلك الوقت دائمة الثورة وكانت الحكومة الانكليزية تمدها بالمعونة تحت ستار خدمة الحق والحرية كما كان رجال المال الانكليز ينالون بذلك امتيازات للتنقيب والحفر

وفكر بنيامين مع زميل له بالمكتب ان يجازفا فى عملية من هذه العمليات واتفقا أن يبدآ عملا صغيرا لم يتجاوز ما جمعاه لاجله أكثر من الف جنيه

ودفعته هذه المجازفة للاتصال برجل اسمه « باولز » احد كبار الماليين المسيطرين على أسواق امريكا الجنوبية واعجب الرجل بالشاب بنيامين وذكائه وعهد اليه بتنسيق كتيب صغير عن شركات التعدين بامريكا وتوزيعها على الناس . وكان بنيامين يجهل تماما كل شيء عن المناجم الا انه استطاع خلال ايام قليلة ان يجمع من المعلومات مايكفي لان يؤلف مجلدا قيما وعهد لصديق والده « مرى » فى طبعه على نفقة المستر « باولز »

واعجب « مرى » بمجهود بنيامين وفكر فى ان ينشأ صحيفة يومية على نسق صحيفة التيمس علاوة على المجلة التى كان يصدرها كل ثلاثة شهور ورحب بنيامين بالفكرة واغتبط لها واقترح أن يشترك الناشر « مرى » والمالي « باولز » والكاتب « لوكهارت » صهر السر « ولتر سكوت » فى اصدارها

وسافر بنيامين الي اسكوتلاندا للاتفاق مع « لوكهارت » ولشد ما اعجب الكاتب اذ يجد امامه شابا لم يتجاوز العشرين ربيعا يتحدث اليه فى فصاحة وبلاغة

وكان « ولتر سكوت » فى ذلك الوقت قد بلغ القمة وكان ناشرو كتبه قد بدأوا يتأففون من بذخه واسرافه لذلك رحب بالمشروع وباستخدام صهره خاصة

وعاد بنيامين بعد ثلاثة اسابيع قضاها مع « لوكهارت » يحمل الى زملائه موافقته بان يتولى

الاشراف على المجلة التى يصدرها بيت « مرى » والجريدة اليوميه المقترح انشائها نظير راتب قدره الفان وخمسمائة جنيها سنويا

وكان بنيامين يجهل تماما حالة شركة « مرى » ولم يهتم بالبحث والاستقصاء عنها . ولم يكن يدور بخلده ان اشتراك شخص كلوكهارت سيثير عاصفة . فقد علم « جون كروكر » المؤلف والسياسى المعروف وسكرتير البحرية واكثر المساهمين فى المجلة بهذا المشروع الذى رتب دون علمه واجتمع فى الحال « بمرى » الذى القى المسئولية كلها على بنيامين دزرائيلي واتهمه بالثرثرة وافشاء خططه واقتراحاته ولسوء الحظ اصابت الاسواق الامريكية فى ذلك الوقت فشلا كبيرا . ولم تمض أيام قلائل حتى افلس « بولز » وخسر بنيامين وصديقه سبعة آلاف جنيه

وهكذا رزح بنيامين فى سن العشرين تحت عبء الدين الثقيل وفقد اصدقاءه ومعاونيه ولم يستطع ان يستمر فى مشروع يقاومه فيه رجل مثل « كروكر » او « لوكهارت » وانقطعت صلته بالجميع وأيقن ان الحياة اصعب واشق مما كان يظن ويعتقد

وعاد بنيامين الى بيته تعبا ضجرا حانقا صاخبا ولكنه لم يلبث طويلا حتى شعر فى نفسه بالرغبة فى الكتابة والتأليف . وقرر ان يكتب قصة تصور الآلام التى قاساها والصور التى مثلها زملاؤه ورسم بطل قصته « فيفيان جراى » كصورته تماما ، ابن كاتب من كتاب الادب يقضى جل وقته بين كتبه وأوراقه . طردته المدرسة واضاعت الشهوات السياسية امله ورجاءه

وانتهت القصة بعد اربعة شهور بعد ان حشاها هجوا لاذعا وكشف فيها عن صورة من صور الحياة القاسية المرة

وكان يقيم بالقرب من بيته محام معروف اشتهرت زوجته بالثقافة والذكاء والفتنة والجمال وكانت الى جانب هذا فنانة تحب الموسيقى وتولع بالادب . وكانت شديدة الاعجاب ببنيامين فلما ان اطمأن اليها اسر لها بموضوع قصته واعجبت بها وعهدت لصديقها « كولبرن » وكان من اكبر الناشرين فى لندن بطبعها واتفقت مع بنيامين ان يكتما اسمه عن الناشر واعادت كتابة القصة بخطها زيادة فى الحيطة

وكان « كولبرن » رجلا خبيرا باصول النشر والاعلان وبدأ ينشر عن القصة فى مختلف الصحف والمجلات معلنا ان ابطالها احياء وانها تحمل للناس حوادث واقعية ذات اراء جديدة فى أناس ذوى شهرة واسعة وتكهن الناس عبثا عن المؤلف ولكن لامر ما ذاع السر دون تبصر او تفكير

وحنق على بنيامين المجتمع الانكليزي كله فقضى بعدها سنة كاملة تنتابه الاحلام والخيالات وأخيرا اقترحت عليه اسرة « اوستن » ان يسافر معها الى ايطاليا حتى يستطيع ان يستعيد نشاطه

وهدأت اسفاره اعصابه الا ان جرحه لم يندمل واصابه صداع مستمر عاقه عن العمل والتفكير وخشى الاطباء عليه التهاب انسجة المخ مما ألزم والده ان يهجر لندن الى برودنهام حيث اشترى قصرا كبيرا بين الاحراش والغابات

وبدأ بنيامين يقضى أكثر وقته مع شقيقته « ساره » يستعرض لها اعماله ويندب لها حظه

وبدأ تفكيره ينقلب ناحية الشئون المادية كيف لا وقد ربح من قصته مائتي جنيه . وكان بنيامين قد بلغ الخامسة والعشرين وكانت الوحدة قد اتعبته ففكر فى رحلة طويلة عسى ان ينساه الناس وان تقبر ذكراه وتطوى صحيفته السوداء

واذعن والده لرأيه وكانت شقيقته ساره قد خطبت فى ذلك الوقت لفتى انجليزى صديق شقيقها فرافق بنيامين فى رحلته وقام الصديقان فى سنة ١٨٣٠ برحلتهما فمرا على اسبانيا وتركيا ثم سوريا ونزلا باورشليم . وعلى جبل الزيتون حط بنيامين رحاله الاخيرة وأمام مقابر ملوك اسرائيل وقف سابحا فى احلامه يستلهم الخيال والوحى . ورحل خطيب شقيقته الى مصر ولحق به بنيامين فى الوقت الذى أصيب فيه بمرض الجدري . وبعد ثلاثة أيام من وصوله مات الشاب وقد حزن عليه بنيامين حزنا شديدا وعاد الى سفينته وأغلق باب غرفته على نفسه وبدأ يكتب حتى اذا وصل الى لندن كان قد كتب قصتين تدور الاولي حول مطامعه السياسية . اما الثانية فكان محورها الشعر الذي يتوق اليه ويتعشقه

وبلغ برودنهام وكان والده قد كبر وضعف بصره وكانت سارة شقيقته حزينة متألمة لفقدها خطيبها

مبـادىء

واكتسب دزرائيلي خلال رحلته اختبارات شتى عن الحياة ولم يخامره شك فى أن الحياة السياسية هى الحياة التى يتوق اليها وأيقن فى النهاية ان حياة الادب لاتفى رغائبه وآماله وليس له الا أن يزج بنفسه فى السياسة والحياة البرلمانية . وكانت هذه الحياة فى ذلك الوقت تتبع قوانين

للانتخاب تكاد تكون مقصورة على طبقة ارستقراطية . وكانت دوائر الانتخاب تنقسم الى قسمين ولايات ومقاطعات اما الولاية فكان يتم انتخاب ممثليها بواسطة الملاك واصحاب الارض الذين يدفعون أربعين شلنا ضريبة . وكان على المرشح أن يشترى أصوات الناخبين وان يتكلف مصاريف انتقالهم وأن يطعمهم ويؤويهم . وكانت هذه الاشياء تكلف نفقات طائلة مما لا يحتملها دزرائيلي الرازح تحت عبء دينه الثقيل

أما الترشيح فى المقاطعات فكان أقل سهولة كما انها لم تكن كلها ممثلة فى البرلمان . وكان للملك فى عهده الحق فى أن يمنح تمثيل بعض البلاد لاناس يخلصون للتاج غير أن هذا الامتياز الغى فى عصر آل استورت ونشأ عن ذلك أن بلادا كثيرة حديثة العهد ظلت باقية بغير تمثيل بينما كانت تحتفظ مقاطعات أخرى أقل رفاهية وحضارة بممثليها كانت هناك مقاطعات يمثلها دائما اصحاب الاملاك فيها فاذا استطاع شخص أن يشترى عقاراتها ضمن لنفسه كرسى البرلمان

وكان للوزارة أيضا عدد ثابت من الناخبين تمتلك الحكومة عقارهم وتمنحهم حق التصويت كما كان يشترى البعض الآخر اصوات الناخبين بمنحهم الوظائف او تقديم مساعدات أخرى لهم او للمتصلين بهم . فاذا عرفنا هذا واضفنا اليه ما كان ينفقه المحافظون والاحرار على المرشحين من أعضائهما وما كان يتمتع به بصفة خاصة حزب المحافظين من السلطة لا كثر من أربعين سنة عرفنا حينئذ أن ثلثي أعضاء مجلس العموم كانوا ينتخبون فى هدوء ودون معارضة

ومنذ سنة ١٨١٥ بدأت المملكة البريطانية تسأم هذا النظام وانحطت التجارة وارتفعت أسعار المعيشة وزادت حكومة المحافظين الضرائب الجمركية على المحصولات الزراعية . ونسب الشعب هذه الفوضى لنظام الانتخاب السيء واستطاع الاحرار بحذقهم ومهارتهم ان يمطروا حكومة المحافظين وابلا من الانتقادات القاسية وتوصلوا بذلك الى أن يتبوأوا كراسي الحكم

ومر على انجلترا بعد ذلك فترات متنوعة حتى انتهى حكم « آل استورت » وبدأت الاحزاب تتنازع السلطة فلما أن جاءت سنة ١٨٣١ كانت أقصى أمنية الانسان ان يلتحق بحزب الاحرار وكان بيت دزرائيلي فى ذلك الوقت من المحافظين الذين يعطفون على آل « استورت » ويعتقدون أن الاحرار انما هم حكومة الاعيان الثائرين على الملك الشهيد . ورغما من ذلك فقد كان بنيامين لايعطف كثيرا على مبادىء الاحرار ويعتقد ان قانون الانتخاب الجديد انما سنه الاحرار بمهارة ليجمع طبقة التجار والصناع من الناس المعضدين لحزبهم

ونشأ مبدأ النفع بين الاحرار وأنصارهم وأوجد طبقة متوسطة من الشعب . وزاد رغبتهم فى النجاح المادى اختراع الآلة البخارية والماكينات الصناعية وانتشار السكك الحديدية كما علمهم علم الاقتصاد السياسى ان العلاقات بين الناس لا يجب أن تقتصر على الواجبات فحسب وانما يجب أن تحدد بقوانين لا تقل عن قانون الجاذبية وحركات النجوم . وبدأوا يؤمنون بقانون العرض والطلب وبسحر الآلة البخارية وقداسة مغازل منشستر

واحتار بنيامين أينضم إلى الاحرار أم الى المحافظين أم الى المتطرفين . وكانت حياة انجلترا السياسية فى ذلك الوقت تختلف عن سائر حياة الامم الاخرى إذ كانت ترتب وتوزع مقاعد البرلمان فى الصالونات حيث يحظى الانسان بتناول عشائه مع « دوق ولينجتون » أو سر « روبرت بيل » أو لورد « ملبورن » أو لورد « رسل » أو لورد « درهام » أو أحد كبراء حزب من الاحزاب

غرامه

وعرفت لندن دزرائيلي فتى له مواهبه جميل الطلعة حسن الصورة أنيق الهندام عاد من الشرق يحمل ثروة كبيرة من القصص . ولعل هذا مادفع الكاتب الكبير « بولز » الى أن يدعوه لحفلاته التى كان يقيمها حيث أتيحت له فرصة التعرف إلى أكبر رجال الدولة وأجمل نسائها وأرجح عقولها وأقبل الكثيرات من النساء على معرفة مؤلف « فيفيان جراى » و « الدوق الشاب » وكانت أبرزهن فى معرفته وصداقته « مدام وندهام » و «مسز نورتون »

وأعجبت الأخيرة به ولبى دعوتها وكان بيتها على الدوام غاصا بكبار السياسيين ورجال الادب ومزدانا بنساء بيت شريدان الجميلات مسز نورتوق مسز بلاك وود ليدى سيمور

وأعجب دزرائيلى بحديث مسز نورتون وبدأ سيدات بيت شريدان الثلاث يلعبن دورا كبيرا فى حياة المؤلف الشاب ولم تتردد مسز نورتون أن تترك زوجها وتصحب دزرائيلى فى غدواته وروحاته وفى المسارح والمراقص

ولذت لدزرائيلى هذه الحياة وتكدست على مكتبه بطاقات الاشراف وأخذ يطرق أفخم القصور ويقتطف أجمل الازهار ويصاحب أفتن النساء

ولعل حبه للتاريخ هو الذى حبب اليه امرأة طاعنة فى السن تدعى « ليدى كورك » كانت فى السابعة والثمانين من عمرها وكانت تستقبل فى صالونها كل مساء خير الناس . فلما ان توسمت

فى دزرائيلي الذكاء وهبته رعايتها القوية فى المجتمع الاجتماعى

وأصبح دزرائيلى بعد ذلك من أكبر زائرى ناد للرقص كان للطبقة الارستقراطية وتحت رعاية شخصيات بارزة قوية

وأنست حياة اللهو والطرب دزرائيلى آماله ومطامعه السياسية وحببت اليه البطالة والكسل وزيفت له الحياة تحت أقدام سيدات بيت « شريدان » وجمالهن الفاتن . غير ان صديقه « بولز » استطاع أن ينحرف به ناحية الامام وبزج به فى معمعة الانتخابات ولم يثنه فشله الاول فأعاد الكرة ثانية ولكنه فشل أيضا

وعاد دزرائيلى ينتقم لنفسه من متاعب هذه الحياة فألقى بها بين الاخوات الثلاث سيدات بيت « شريدان » اللائى لا نظير لهن فى الجمال والفتنة واتسعت دائرة معرفته بحسان النساء الجميلات واصطحب الكثيرات منهن إلى المراقص واللهو

واتخذ له خليلة أحبها وألف لها قصة غرام سماها « هنريتا تمبل » وتلاها بقصة أخرى وكانت « هنريتا » الحقيقية متزوجة ولكنهما كانا يقضيان أوقاتهما سويا اما فى الاوبرا أو فى ركوب الجبل أو النزهة أو ما أشبه

وقدمه صديقه « بولز » لميدى « بلزنجتون » وكانت زوجت فى الخامسة والعشرين من عمرها بالرغم منها رجلا معتوها واسع الثروة استطاعت أن تطلقه وتزوجت من بعده « اللورد بلزنجتون » وسافرا سويا إلى ايطاليا حيث قضيا أربع سنوات مات بعدها اللورد فجأة وعادت الي لندن تقيم فى بيتها الفخم

وأحب دزرائيلى بيتها لجميل أثاثه ورياشه ولحسن تنسيقه وتنظيمه . وأحبها دزرائيلى وأصبحت موضع سره وثقته

واتفق ذات يوم ان كان دزرائيلى فى بيت « مسز نورتون » فتعرف إلى اللورد « ملبودن » أكبر وزراء الاحرار فأحبه لذكائه وفطنته وأسر اليه أن يزج بنفسه فى الحياة السياسية

ودوى ساعتئذ فى أذنه صوت جميلات بيت « شريدان » حين سألنه « ما أعظم ما تصبو اليه فى الحياة » وحين أجابهن « موكب فخم مستمر من الرجولة إلى القبر »

آراء جديدة

وفاز الاحرار فى انتخابات سنة ١٨٣٣ فوزا يبشر بتألق نجمهم لا كثر من نصف قرن ونجح

كثير من الاحرار الذين كانوا محافظين قبل . غير انه لم تمض فترة كبيرة حتى ترك اللورد «ستانلى» وأصدقائه حزب الاحرار وبذلك أفل نجم الاحرار وبدأ يسطع نجم المحافظين

ورأس سر « روبرت بيل » حزب المحافظين واجتمع « بيل » و « ستانلى » تحت علم واحد وسهل هذا الانقلاب على دزرائيلي أن يتطور تطورا سياسيا ومن تلك اللحظة أصبح عضوا فى حزب المحافظين

وأحس « بيل » أن واجبه الاول يقضى عليه أن يدافع عن تقاليد الملوكية ومجلس اللوردات والكنيسة . وكان أعضاء حزب المحافظين من الاغنياء الذين يمتلكون الغابات والقصور والمباني والشركات وأيقن دزرائيلي أن من واجبه مواجهة الحقائق وانه رغم كونه محافظا لا يستطيع أن يعمل فى ظل دستور لا يتفق روحه والعصر الذي يعيش فيه

وفى سنة ١٨٣٥ نشر دزرئيلي رأيه فى الدستور الانجليزي فى خطاب بعث فيه لاحد اللوردات والنبلاء المثقفين جاء فيه ان بقاء مجلس اللوردات ربما يبدو سخيفا للذين يؤمنون بنظرية الانتخاب الا انه يرى ان الخطر الاكبر فى هذه الانتخابات التي تكون نتيجتها دائما غير ممثلة تمثيلا صحيحا اذ من السهل على الخاصة والاعيان من الساسة المحترفين أن يسيطروا على الانتخابات وأن يحكموا البلاد . وعلى ذلك فمجلس اللوردات يمثل قوى البلاد الحقيقية . فالكنيسة يمثلها الاسقف والقانون يمثله قاضى القضاة والولايات يمثلها شخص النقيب والاراضى يمثلها ملاكها الوارثون . أما فى مجلس العموم فهو يرى ضرورة اصلاح ما سنه الاحرار من الانظمة فى سنة ١٨٣٢ ويقول ان الهدف عند من يقود المحافظين لا ينحصر فى الاحتفاظ بما هو موروث وانما عليه أن ينظف الحزب من الاجحاف والمبادىء الغير الصالحة وأن يكون فى سياسته سخيا أيضا

وكان لهذا الخطاب أثره . وبدأ كبار رجال الحزب يؤيدون منح دزرائيلي كرسيا فى البرلمان للاستفادة من نشاطه وذكائه وغيرته

وتتابعت الحوادث ومات الملك وليم الرابع يوم الاحتفال بذكرى معركة واترلو . وتولى الملك من بعده فتاة فى الثامنة عشر من عمرها هى الملكة فكتوريا

وحل البرلمان عقب تولى الملكة الحكم وبدأت الانتخابات العامة وحانت ساعة النصر لدزرائيلي وبدأ اللورد « ليندهرست » يعضده ويساعده حتى انتهى الى انتخابه عضوا فى مجلس العموم عن دائرة يجهل سكانها

وهكذا ساقه القدر خطوة خطوة متنقلا به من ناحية لاخرى حتى انتهي به الي المقعد الذى ظل يحلم به منذ ترك المدرسة

بداية غير موفقة

وقضى دزرائيلي فى « برودنهام » ثلاثة أشهر عاد بعدها الي لندن يستقبل حياة جديدة . واحتفظ لنفسه بمقعد فى مجلس العموم خلف مقعد رئيسه السر « روبرت بيل »

وانقضى اسبوعان دون أن ينبس دزرائيلي ببنت شفة رغم رغبته فى الكلام . إذ كان الرعب قد دب الي نفسه ممن يحيطون به من اعاظم رجال الدولة . فامامه الوزراء ومن خلفه رئيس حزب الاحرار وبالقرب منه لورد « بالمرستون » ولورد « ستانللى » ومن بين الراديكاليين صديقه « بولز » ومن بين جماعة الايرلنديين عدوه اللدود اللورد « دانيال اوكونل »

ولهذا الرجل مع دزرائيلي قصة ترجع لتلك الايام التى كان فيهـا دزرائيلي كثير التدلل على الراديكاليين كما كان جماعة الايرلنديين شديدى العطف عليه فلما انقلب محافظا سخر منه « اوكونل » وهزأ به وأهانه فى المجتمعات والاندية مما كان له أسوأ الاثر فى نفس دزرائيلي

وجرى ذات يوم حديث فى مجلس العموم عن اكتتاب بدأه مستر « سيوتسود » الغرض منه مد يد المساعدة للبروتستانت لمحاربة الكثلكة فى ايرلندا . وكان هذا الاكتتاب أمرا غير مرغوب فيه لا للايرلنديين فقط وانما للاحرار أيضا ولم يكد ينتهى « اوكونل » من كلامه حتى نهض دزرائيلي رغم انه كان من المتفق عليه ان يتكلم لورد « ستانللى » نيابة عن المحافظين . وكان الارلنديون والاحرار يعرفون عنه أنه راديكالى قديم انضم الى المحافظين . وكاتب قدير وخطيب مفوه وكانت قصته مع « اوكونل » معروفة خاصة لانصاره فالتفوا حول راية واحدة يناهضونه ويقاومونه . وكان على دزرائيلي أن يظهر براعته حتى يهيىء له المحافظون مستقبلا عظيما كما كان عليه أن يفهم « اوكونل » أن ساعة التكفير قد ازفت ودنت

وكان كبير الثقة بنفسه أعد خطابه من قبل وملأه بالحجة القوية والعبارة البليغة وكانت النظم البرلمانية تقضى أن يقابل الاعضاء الجدد بالعطف والتشجيع

غير أن دزرائيلي لم يكد يبدأ حديثه متهكما علي الايرلنديين وخاصة « أوكونل » لانه وجماعته يستفيدون من مثل هـذه التبرعات او بالاحرى هذا التسول المنظم حتى دوى المجلس بالقهقهة

العالية وبدأ الايرلنديون يضجون ويصخبون ويتهكمون ويقهقهون ويحدثون باقدامهم أصواتا مزعجة . وحاول دزرائيلي مرارا أن ينتهي من حديثه ولكنه لم ينجح واستمرت القاطعة والصفير طويلا

وترك مكانه مكرها وجلس صامتا بينما كان خصومه لا يزالون يضحكون ويهزأون به وأخذ رأسه بين يديه يفكر فى الاستقبال المزرى الذي قابله به « اوكونل » وجماعته . وظل فى صمته وتفكيره حتى همس فى أذنه لورد « شاندوس » يهنئه بما أبداه من شجاعة ورباطة جأش وبراعة

زواجه

وعطف عليه واحد من أنصار « اوكونل » واتصل ذلك بصديقه « بولز » فرتب لهما عشاء واسدى الرجل لدزرائيلي نصائح شتى يجب اتباعها ان أراد النجاح فى حياته السياسية . ثم مر أسبوع وقف بعده دزرائيلي خطيبا بين حفل من الناس يدافع عن حقوق المؤلفين والكتاب . واعجب الناس على اختلاف أحزابهم بعبارة الرجل وبراعته واحس دزرائيلي بهذا الفوز وكتب لاخته يبشرها بمستقبله الباهر

وبدأ نجمه فى المجلس يتألق وحالت شئونه السياسية بينه وبين حياته الاجتماعية . غير أنه واظب على زيارة صديقته مدام « وندهام لويس » حيث كان يجد فى بيتها الهدوء والسكينة وفجأة وبعد ستة شهور من دخوله مجلس العموم دات زميله ومعاونه زوج صديقته . وبدأ يتسع الوقت له لمؤاساتها وقضاء اكثر أيامه فى بيتها . وبدأ ينمو الود ويبادلها أحسن العواطف والصداقة كما بدأت خطاباته تنتهى بعبارة غرامية رقيقة رغم انه لم يكن فى ذلك الوقت يفكر فى زواجه بها فقد كانت تبلغ الخامسة والاربعين بينما كان هو لايتجاوز الثالثة والثلاثين

مات «وندهام لويس» وترك لزوجته دخلا يقدر بأربعة آلاف جنيه . وكان المجتمع الانكليزي الراقي يعدها غير مثقفه . غبية جاهلة . وليس شك فى أنها لاتصلح لكاتب شاعر شاب كدزرائيلي يحفظ له القدر اسمى المناصب

غير أن عيون المحبين عمياء فقد رأى فيها دزرائيلي أنها وان كانت جاهلة الا انها لم تكن غبية . تفهم الرجال جيدا فهى بلا ريب تصلح له رفيقة أنيسة . اما هى فكانت تعجب به وتحبه بل تعيش لاجله

وانتهى الامر أن طلب دزرائيلي يد « ماري آن » ولـكنها لمعرفتها بمواهبه العـالية وثقتها بمستقبله الزاهر رأت أن يتمهلها سنة تستشير فيها نفسها وتدرس خلالها أخلاقه وعاداته

وبدأ من تلك اللحظة يتبادل معها أرق الرسائل التى تنم عن حب عميق وعاطفة قوية وبدأت فجأة تقل رسائلها وتبرد حرارة حبها

وأدرك بعد ذلك منها أن أصدقاءها العديدين لا يوافقون على مثل هذا الزواج معللينه برغبة دزرائيلي فى التخلص من ديونه الثقيلة والتمتع بثروتها ومالها . غير أن دزرائيلي لم يحتمل هذه الاراجيف فـكتب لها على الفور كتابا قاسيا جاء فيه « ان زواجي بك لا يفيدني ماليا . فانا كما تعلمين أستطيع أن اعيش . وداعا فانا لا أتظاهر بأن ارجو لك السعادة لانه ليس فى طبيعتك أن تحصلين عليها . ولـكن سيحين الوقت قريبا حين تتلهفين فيه على قلب يحبك وسوف تيئسين من أن تجدى هذا القلب المخلص الوفي . وحينئذ تأذن ساعه عقابك ومن ثم ستذكرينني وتذكرين قلبي الرحيم »

ولم تستطع « ماري آن » بعد ذلك الا أن تكتب له متوسلة اليه أن يزورها فهي مريضة حائرة وهي لن تسمح له بعد أن يغادر منزلها فهى تحبه وتخلص له . وفى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٦ تزوج دزرائيلي « بماري آن » فى كنيسة سان جورج

امل ورجاء

وتبدل حال دزرائيلي خلال أشهر قلائل وبدأ يشعر بالسرور والسعادة رغم الاخطار الكثيرة التى اتصفت بها زوجته . ولعـل أحسن صورة لهذين الزوجين ما كتبته « ماري آن » بنفسها عن زوجها فى مذكراتها الخاصة . قالت « انه يختلف عنى تماما فهو عبقري . مولع بالقراءة . صبور متواضع . قليل التأثر . هادىء الطبع . ينم وجهه عن الحزن . ملتهب فى حبه بارد فى صداقته شديد الاعجاب بذاته . قلما يقول مالا يفـكر فيه . وقلما أعرف من وجهه ما يحب وما يكره . قلما يفرحه شيء »

أما هى فتقول عن نفسها « بانها على نقيضه تماما . كسولة خاملة . تميل الى الـكبرياء بلهاء تكره السياسة . سريعة الانفعال »

انحرف بعد ذلك تفكير دزرائيلي لناحية الوزارة وبدأت مبادىء الديمقراطية تظهر فى الافق وظن الناس أن وسائل الاصلاح سوف تتناول مرافقهم وتقضى على آلامهم ومصائبهم . وكانت الآلات قد انتشرت وتهددت حياة الكثير من العمال . وتضاعف المتسولون وزادت البطالة . وعزا الناس ذلك كله للنظام السياسى وبدأوا يطالبون بنصيبهم فى الانتخابات مع الاقتراع السرى دون تفريق بين فئة وأخرى . وتحرج مركز وزارة الاحرار لانقسامها فى الرأى ازاء المطالب الجديدة

وفى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٤١ وعقب هذه الحركة مثل سر « روب بيل » بين يدى الملكة وكان زوجها البرنس البرت يحبه ويجله وتلقى أوامرها بتأليف وزارة يرأسها . وراح الناس يذكرون اسماء الوزراء الجدد وأذيع أن « ليندهرست » صديق دزرائيلى سيكون قاضى القضاة واللورد « ستانللى » للمستعمرات و « غلادستون » الشاب لوزارة التجارة . وظل دزرائيلى يترقب ذيوع اسمه أسبوعا كاملا على غير جدوى . وأخيرا كتب لصديقه « بيل » الخطاب الآتى :—

« سيدى العزيز سر « روبرت »

« كنت أود الا اتقدم بهذا اليك لو كنت أعتقد أن هناك شخصا آخر استطيع الاعتماد عليه لا عبر له عما يخالج نفسى . أنا لا أود أن أرهقك بطلب كسائر الطلبات ولا أريد أن أعيد الى ذاكرتك محاربتى اربعة خصوم من أجل حزبك وأن أموالا طائلة وجهدا عظيما أحرقتهما من أجل نشر سياستك . غير أنى أشعر أن هناك أمرا لاأستطيع السكوت عليه فقد كان على أن أكافح عاصفة من الضغائن السياسية وأجاهد ، عالما علم اليقين ، أن يوما سيحل تقدر لى فيه هذا العمل وتلك الكفاءة والمقدرة

« أنى أهيب بك ويكرم أخلاقك وعدالتك أن تنقذنى من الاهانة التى لحقت بي والتى لاتحتمل أو تطاق »

وكتبت زوجته فى الليلة السابقة كتابا لرئيس الوزراء دون علم زوجها وتحت تأثير حزنه جاء فيه :

« أرجو الا تغضب من كتابى هذا أن حياة زوجى السياسية قد تتهدم وتتحطم اذا لم تهتم به فبالله عليك لاتهدم آماله كلها . هل أستطيع أن أعدد لك جهودي المتواضعة فى السنوات الماضية من أجل الحزب أو بالاحرى من أجلك شخصيا يمكنك أن تعرف أن اكثر من اربعمائة الف جنيه صرفتها كلها . لا أطلب منك ردا لكتابي هذا كما اود ان يبقى سرا محفوظا »

وفى الحق أن سر « روبرت بيل » كان يود أن يشترك دزرائيلي فى وزارته ولكنه كان محاطا بزملاء لايودونه ولا يحبونه وهدد « كروكر » سبب نكبته الاولي فى انشاء الصحيفة اليومية كما هدد « ستانلي » بالانسحاب ايضا

وتألفت وزارة المحافظين وعقد البرلمان وكان موقف دزرائيلي موقفا غريبا . وأغتبط اعداؤه وتوقعوا منه أن يهاجم رئيس حزبه وشجعه الراديكا ليون على ذلك

وأدرك دزرائيلي الخطر وكان يربطه « ببيل » عاطفة قوية فواظب على حضور الجلسات وعضد الوزارة فيما قامت به ترضية لرجال التجارة الحرة من الغاء الضرائب على أكثر من سبعمائة صنف وأيدها فيما فرضته تعويضا لهذه الخسارة بما سماه ضريبة الدخل . وكان دزرائيلي موفقا فى دفاعه توفيقا حاز به شكر جماعة جديدة من النواب تخرجوا حديثا فى جامعة « كمبريدج »

وظلت وزارة « بيل » قوية ولكنها لم تقم بما كان يتوق إلى تنفيذه دزرائيلي من المشروعات فاستقر رأيه على أن يترك المجلس قليلا ويسافر الى باريس يقضى فيها وزوجته فصل الشتاء

وحمل فى جيبه كتاب توصية الى شقيقة صديقه « دورزى » وقامت بدورها تقدمه لكبار رجال الدولة ووزرائها واستطاع بمعونتهم أن يقضى مع الملك والملكة والاسرة المالكة وقتا كبيرا

وكان بين جماعة « كمبريدج » الذين أعجبوا به شاب اسمه « ما نرز » وآخر اسمه سمث كانا من الذين لم يطمئنا لحالة البلاد السياسية ووطدا العزم على أن يؤلفا كتلة تحت رياسة دزرائيلي و فعلا سافرا الى باريس للاتفاق معه

ورحب دزرائيلي بهما واتفقوا على تأليف كتلة احتفظوا بسرية أعمالها

ووطد دزرائيلي العزم على شن الغارة على الوزارة رغم الاكثرية التى تسند « بيل » وبدء نشاط الجماعة اثر عودة دزرائيلي الي لندن . واتخذ الفرسان الاربعة مقاعدهم خلف رئيس الوزراء وبدأوا يرفضون أعطاء أصواتهم للحكومة متى تبينوا انها لاتتفق ومبادىء كتلتهم « انجلترا الفتاة »

وبدأ « بيل » يدس شتى الدسائس ضد دزرائيلي ويعامله باستهزاء كما قرر مع أنصاره أن يطرده من حزبه حتى اذا أعيدت الانتخابات كان نصيبه الفشل وتنتهى بذلك حياته وأغفل فعلا دعوته لحضور اجتماع الحزب فلما استفسر دزرائيلي عن سر ذلك أجيب بان اعماله وحركاته فى

ـدة الاخيرة تبرر هذه النتيجة

وبدأت جماعة « انجلترا الفتاة » تحمل حملاتها على الوزارة وسافر الفرسان الاربعة الى منشستر واختلطوا بالعمال وقوبلوا مقابلة حماسية وعاد لدزرائيلي حبه للكتابة ورأى أن الفرصة سانحة لكتابة قصة تبحث النظم والبرامج السياسية كما يستطيع أن يستعرض فيها آراء الاحزاب وتحت هذا الستار يمكنه أن يعلن فى صراحة آرائه ومشروعاته وأن يتحدث عن انجلترا الحديثة من حيث ارستقراطية الشعب والكنيسة

واستطاع خلال سنتى ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ أن يصدر مجلدين من قصته « الجيل الجديد »

وأوضحت القصة فى صورة جلية شخص دزرائيلي وعقيدته ومذهبه ثم ذكر فى جلاء أغراض الحزب ومراميه . ولعل أبلغ ماوصف به المحافظين بأنهم جماعة لا يمتلكون شيئا يحتفظون به كما انهم الاحرار بأنهم أعداء الحرية . وعنى فى قصته عناية خاصة بالفقراء ونظام الحكم والحياة السياسية وبؤس القرى والمدن الصناعية والمناجم . وكانت القصة فى سهولة عبارتها وتهكم حوارها صورة حقيقية للحياة الانكليزية فى شتى نواحيها

وانتهى دزرائيلي من قصته وبدأ يعود للنضال السياسى وكان السر « روبرت بيل » فى ذلك الوقت مسيطراً على مجلس العموم يفرض على معارضيه احترامه احتراما لا يقل عن احترام زملائه له . وكان يحسب المعارضة خطيئة . ووقف دزرائيلي و « بيل » وجها لوجه وبدأت حملاته فى المجلس وعباراته التهكمية تزعزع سلطته كما بدأ شعور الناس يضعف من نحوه

وأصابت الاراضى وقتئذ آفات هددت الزراعة وكان « بيل » يميل لحرية التجارة فانتهز هذه الفرصة وأعد قانونا يلغي به الضرائب ويستورد من الخارج المواد الغذائية غير أن خصومه هزأوا به وعدوا عمله خيانة واضطربت الوزارة وانسحب « ستانلي » منها وتبعه سائر الوزراء . ثم تتابعت الحوادث وركن دزرائيلي لكتابة قصة جديدة دارت حوادثها حول نظرياته فى اليهودية والكنيسة حتى ان « كارليل » قال عنه « كيف يسمح جون بول لهذا القرد القذر ان يرقص على صدره »

وأتاحت الظروف له أن يشرح نظرياته عقب سقوط وزارة « بيل » فى مجلس العموم ذاته على أثر انتخاب « ليونل روتشيلد » عضوا فى البرلمان اذ أن القانون لا يسمح باعتلائه كرسيه ما دام يحتم عليه القسم على الشريعة المسيحية

ومرت الايام وانقضت الشهور واذا « بيل » يسقط من فوق جواده سقطة قاتلة ومات فى اليوم التالى « بيل » وأسف دزرائيلي والشعب لموته واعتقد أنصار « بيل » انه من الخطأ أن يتعاونوا مع دزرائيلي عدو رئيسهم غير انه أظهر استعداده للعمل معهم مقتفيا أثر « بيل » فى برنامجه وسياسته

واستدعت الملكة اللورد « استانلى » وطلبت اليه تأليف الوزارة ولكنه صرح لها بأن حزبه لايجمع الكفاءات المطلوبة وأشار الى ضرورة الاستفادة من نشاط دزرائيلي وذكائه. واقترح دزرائيلي بدوره أن يستعين باللورد « غلادستون » وزملائه

وعين « دزرائيلي » وزيرا للمالية وهو يجهل الشئون المالية جهلا تاما . وبدأ غلاستون يراقبه عن كثب لاعتقاده فيه بأنه رجل لا دين ولا مبدأ سياسى له

وطرحت الميزانية فى البرلمان ولم تهاجم ميزانية قبل اليوم كما هوجمت ميزانية دزرائيلي وانتهى أسبوع كامل لم ينقطع فيه سيل السخرية والاستهزاء به وحمل عليه رجال المال باعتراضاتهم متهميه بالغباوة والجهل

وكان دزرائيلي فى أثناء ذلك سا كنا مكتوف اليدين يبدو عليه الجمود كمن لا يشعر ولا يحس وأخيرا وقف واستهل حديثه بعبارة ساخرة ثم أخذ يلقى على المجلس أرقاما شيطانية . واستمع له المجلس فى صمت وسكون حتى اذا دقت الساعة الرابعة صباحا رجحت كفة الوزارة ونالت الميزانية الموافقة بأغلبية ٣٠٥ ضد ٢٨٦ صوت

وتقدم دزرائيلي فى السن وبلغ الاربعين ثم الخامسة والاربعين وخطا خطوات أخرى واسعة تبلغ الستين والحادية والستين ولم ينل بعد مأربه وغايته ولم يصل لمنصب رئيس الوزراء وهو الهدف الذى يسعى اليه ويصبو له

وبدأ دزرائيلي ينهض بانجلترا مبتدئا بتغيير نظام الانتخاب مفضلا أن يعطى هذا الحق لكل ناخب ضاربا بالاعتبارات الاخرى عرض الحائط . وانتشرت آراء المحافظين والاحرار فى هذا الصدد واجتمع الشعب جماعات جماعات يطالبون بالاصلاح المنشود وأيدت الملكة هذه الرغبة تهدئة لهذه القلاقل التى أزعجت المملكة منذ أكثر من ثلاثين سنة

وجاءت ساعة النصر لدزرائيلي وأحس رئيس الوزراء بمرضه فكتب استقالته للملكة ناصحا لها أن يخلفه دزرائيلي

وتوطدت العلاقة بين الملكة ودزرائيلي حتى مات زوجها البرنس البرت فرثاه دزرائيلي فى المجلس رثاء طيبا زاد حب الملكة له وتقديرها اياه

وبدأت الغيرة تدب فى نفس « غلادستون » وبدأ يهاجم حكومة دزرائيلي منذ الاسبوع الاول . وبلغ « غلادستون » الستين من عمره ولكنه رغم ذلك زج بنفسه فى معركة الانتخابات رغبة فى الانتقام والتشفى

عزاء

فلما أعلنت نتيجة الانتخابات وفشل دزرائيلي كان أول ما اتجه اليه أن ينسحب من الحياة السياسية وكانت التقاليد تقضى أن يمنح رتبة شرف تخول له البقاء فى مجلس اللوردات غير أنه لم يقبل أن يترك حزبه مقهورا وينزوى فى مجلس اللوردات . فلما أظهرت الملكة استعدادها تقديراً لخدماته ان تمنحه لقبا فضل ان يكون من نصيب زوجته

واشتد المرض على زوجته . وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ ماتت بعد أن بلغت واحد وثمانين سنة فظن أصدقاؤه السياسيون أن حياته السياسية قد انتهت بوفاة زوجته ولكنهم اخطأوا التقدير فقد دفعته وحدته وعزلته الى النشاط والعمل

وبدأ « غلادستون » فى سياسته حاكما مستبدا وتحرجت الحالة بينه وبين الكنيسة الارلندية وعارضته الملكة ورغبت فى سقوط وزارته

وفى سنة ١٨٧٣ بدأ الاستعداد للانتخابات وبدأ المحافظون ينظمون صفوفهم وبدأ دزرائيلي يستعد لحملته

وشعر دزرائيلي بالوحدة وبحاجته الشديدة للعطف والمؤاساة بعد وفاة زوجته . وعادت صداقته تتجدد مع الليدى « شسترفيلد » والليدى « برادفورد » وأخذ يتردد عليهما ويكتب لهما كتبا كلها رقة وظرف . وكانت الليدى « شسترفيلد » قد فقدت زوجها وبلغت السبعين من عمرها أما الليدى « برادفورد » فكانت فى الخامسة والخمسين وكان زوجها لا يزال حيا . وأخيرا اقترح على الليدى « شسترفيلد » ان يتزوجا ولكنها رفضت لسببين الاول اعتقادها بان الزواج فى سنها أمر مضحك والآخر لانها تعرف حب دزرائيلي لاختها

وبدأ « غلادستون » حملة الانتخابات ونجح المحافظون اذ هزم « غلادستون » وفاز دزرائيلي

وحزبه بأغلبية ساحقة . وابتهج الشعب لهذه النتيجة وفر « غلاستون » من الميدان تاركا زعامة حزبه أيضا

ورأس دزرائيلي حزب المحافظين وأصبح الزعيم المحبوب حتى من اعدائه ومعارضيه . وزادته سنه احتراما وتقديرا كما زادته خبرة فى الحياة وشئونها

وبلغ دزرائيلي اقصى ما يصبو اليه فى الحياة من القوة والجبروت . تعضده الملكة ويشد ازره حزبه . ولكنها قوة جاءته متأخرة بعد ان كبرت سنه وتهدمت قواه وأصابه المرض وفقد زوجته وشقيقته العزيزتين . فالحظ والقوة والشهرة قد تزيد الانسان سعادة ولكنها لن تخلقها وتوجدها

وبدأ دزرائيلي بعد أن توطدت علاقته مع الملكة بسن قوانين كثيرة الغرض منها تحسين العلاقات بين العمال وأصحاب الاموال وتوسيع سلطة الاتحاد التجارى وتخفيض ساعات العمل فى الاسبوع الى ست وخمسين ساعة ومنح بعد ظهر يوم السبت عطلة رسمية وقوانين أخرى صحية

وكان يتوق في شبابه الى أن يقوى مركز انجلترا السياسي وأن يعطى للمستعمرات امتيازات استقلالية وأن يفرض عليها ضرائب للامبراطورية كما ود أن يمنح حق التمثيل للمستعمرات . وكانت هذه الافكار كلها جديدة وغير مرغوب فيها

وفى ١٥ نوفمبر من سنة ١٨٧٥ استدعي « فريدريك جرين وود » محرر البول مول غازيت لمقابلة لورد « دربى » « الابن » فى وزارة الخارجية وكان قد تناول عشاءه فى الليلة السابقة مع مالى كبير له المام بالشئون المصرية وعرف منه أن الخديوى لاحتياجه الشديد للمال يرغب فى بيع نصيبه فى أسهم قناة السويس وتقدر بمائة وسبعة وسبعين الف سهم من مجموع أسهم القناة البالغ عددها أربعمائة الف . ورأي « جرين » أن من خير انجلترا أن يحتفظ الخديوي بنصيبه فى الاسهم ما دامت قناة السويس الطريق الوحيد لخير مستعمراتها . ولم يهتم اللورد « دربى » بذلك كثيرا غير ان دزرائيلي أبرق فى الحال لممثل انجلترا فى مصر يستطلع حقيقة الخبر فأبلغه الاخير بصحته وأن الخديوى وقع اختياره على ماليين فرنسيين وقبلوا أن يدفعوا له ٣٫٦٨٠٫٠٠٠ جنيه ثمنا لهذه الاسهم

وكان الخديوى شديد الرغبة فى التعامل مع انجلترا ولكنه فى الوقت ذاته كان يعوزه المال وكان البرلمان الانجليزى فى عطلته الرسمية وليس من السهل انتزاع أربعة مليون جنيه من الميزانية دون موافقة المجلس

وأصر دزرائيلي على أن يجد المال المطلوب وانتهى الى الاتفاق مع « روتشيلد » على اقراضه المبلغ وكتب فى الحال كتابا للملكة يفيدها فيه بحل المشكلة وبقبول «روتشيلد» تقديم المال المطلوب بسعر مخفض . وانتقلت بذلك ارباح الاسهم من يد الخديوى الى الامبراطورية البريطانية

مشاغبات

وكانت ألمانيا ابان حكم غلادستون قد بدأت تلعب دورا كبيرا فى السياسة الاوربيـة غير ان دزرائيلي استطاع أن يجعل لانجلترا سياسة خارجية ورغبات ترعاها على الدوام . غير ان بسمارك بدأ يهدد بلجيكا وفرنسا . وثار لذلك دزرائيلي . وكتبت الملكة لقيصر روسيا كتابا انتهى بتعاون الدولتين تعاونا ألزم « بسمارك » أن يتقهقر وعادت انجلترا فى سنة ١٨٨٥ تبسط سياستها على أوربا

وساءت صحة دزرائيلي وطلب من الملكة اعتزاله العمل . غير أن بعض فلاحى البوسنة والهرسك ثاروا فى السنة ذاتها على الاتراك الذين عاملوا رعاياهم الغير المخلصين معاملة سيئة . وكان يبدو لاول وهلة ان الحادث تافه ولكنه لسوء الحظ نما وزاد . وأشعل الروس نيران الثورة والكراهية فى كل قرية من قرى البلقان ضد تركيا لسببين : الاول لارتباط روسيا بدول البلقان بعاطفة دينية والثانى لرغبة روسيا فى ايجاد منفذ لها على البحر الابيض المتوسط

وكان دزرائيلي يخاف أن يرى روسيا يوما فى البحر الابيض اذ ان جل همه كان العمل على المحافظة على المواصلات الحرة للهند واستراليا عن طريق قناة السويس ولا يكون ذلك إلا بايجاد علاقات طيبة مع تركيا . وكان يخشى أن تصبح آسيا الصغرى فى يد دولة معادية وخاف أن تلعب روسيا هذا الدور

وتلت البوسنة بلغاريا فى الثورة . ورغبت روسيا وألمانيا والنمسا فى أن يعدوا مذكرة قاسية يبعثون بها الى تركيا وطلبوا الى انكلترا توقيعها غير ان دزرائيلي رفض اذ ليس من المعقول أن تتعاون انجلترا فى هدم قوة تعتز بها وفى بقائها نفع لها

وظلت الحكومة الانجليزية على خطتها حتى نشرت الديلى نيوز وكانت من أنصار « غلادستون » مقالا ملأته بيانات مريعة عن المظالم والفظائع التى ترتكبها تركيا فى بلغاريا . فالاطفال يذبحون والنساء تغتصب والفتيات يبعن كالرقيق وعشرة آلاف مسيحى يزجون فى السجون . واتهمت الصحيفة رئيس الوزراء بممالأته لتركيا

وقرأ دزرائيلي هذا كله وارتاب في صحته واعتقد ان « غلادستون » وصحبه يتغالون في ذكر الحقائق وصرح في مجلس العموم برجائه أن تكون هذه الاخبار غير صحيحة ولكن دزرائيلي لاول مرة أخطأ التقدير فقد وردت التقارير تثبت صحة مانشرته الصحيفة

وثار الشعب لهذه الانباء وبدأ غلادستون رغم بلوغه السبعين من عمره ورغم مرضه يحمل على خصمه حملات عنيفة وأعد رسالة حمل فيها على تركيا حملة شعواء وزعها على آلاف الناس كما بدأ يجمع الاكتشافات لمساعدة بلغاريا

وكان دزرائيلي يخاف أن تفقد الامبراطورية وحدتها ومستقبلها . لذلك لم يعبأ بالعاصفة لاعتقاده بأن الشعب لا محالة سوف يستعيد رشده وتهدأ ثائرته

وكانت خطة دزرائيلي أن يكتفي بانذار روسيا دون شهر الحرب عليها . وأعلنت روسيا الحرب على تركيا وأرسل القيصر رسولا في مهمة خاصة الى انجلترا للحصول على وعد بالتزام الحياد ولكن دزرائيلي حذر روسيا بأن حياده لايدوم الا اذا احترم القيصر الثلاث النقط الهامة في سلامة الامبراطورية « قناة السويس . الدردنيل . الاستانة » وبدأ سفير روسيا يلعب دورا هاما وأعلن الحكومة البريطانية بأن مسألة الاستانة مسألة يمكن حلها بالقوة

وانتصرت روسيا على بلغاريا واضطربت الملكة وارتابت في وعود روسيا ورغبت في اعلان الحرب عليها بينما كانت تفاوض تركيا سرا في عقد معاهدة

ووقف البرنس « بسمارك » في مجلس الرشستاج والقى خطابا غامضا ضد روسيا صرح فيه بأن المسألة الشرقية قليلة الاهمية لالمانيا ولكنها عظيمة الاثر في حفظ السلام . وطالب بأن تخضع المعاهدة المنوي عملها بين تركيا وروسيا لموافقة القوات الاوربية الاخرى في مؤتمر يعقد مثلا في برلين

وذهل الانجليز حين أعلنت المعاهدة فاذا بها تفقد تركيا كل ماتمتلك في أوربا وان تضع روسيا يدها على بلغاريا وأن تحتل على الساحل الاسيوى كاروز وباطوم

وظل دزرائيلي رغم ذلك كله هادئا ساكنا لايعبأ لشيء وأخطر السفير الروسى أن انجلترا لاترى مانعا من اشتراكها في مؤتمر برلين على شرط أن تتفق روسيا وانجلترا على بحث أدق النقط قبل اجتماعه . ورأي السفير ان في ذلك حرمان روسيا من ثمرة انتصاراتها وأصر دزرائيلي على رأيه وهدد روسيا بطردها بالقوة من الاراضى التى كسبتها

وعقد مجلس الوزراء البريطاني وصرح دزرائيلي برغبته في اعلان الحرب كما صرح باستدعائه للاحتياطي من الجيش وارساله الاسطول الى الاستانة

وكانت روسيا في ذلك الوقت لاتملك أسطولا قويا كما كانت ترغب في الاتفاق مع حكومة انجلترا أكثر من رغبتها في الاتفاق مع حكومة ألمانيا . وعاد السفير يحمل حلا وسطا غير ان دزرائيلي رفض ماعرضه وأذعنت روسيا أخيرا لرأيه ووقعت اتفاقا مع سلطان تركيا تنازلت فيه عن قبرص لانجلترا كما تعهدت انجلترا بالمحافظة على « كاروز وباطوم » وسافر سفير روسيا الى مؤتمر برلين يحمل في جيبه هذه الاسس . وكسبت انجلترا الموقعة دون أن تطلق طلقة واحدة

وتحقق حلم دزرائيلي في اقتناص قبرص وضمها الي جبل طارق ومالطه لحماية مياه البحر الابيض

وانعقد مؤتمر برلين ومثلت فيه الدول الاوربية واحتفظ كل منها بمعاهدة سرية . وسرعان ما تبين دزرائيلي أن روسيا تنقض ما اتفقت عليه أولا وخاف أن تصبح بلغاريا فريسة لروسيا يوما ما

وهدد دزرائيلي واضطرب بسمارك واجتمع به اجتماعا دام ساعة ونصفا انتظم بعده المؤتمر واملت انجلترا كلمتها علي سائر الدول

وعاد دزرائيلي الى لندن بين التصفيق والهتاف والتهليل ظافرا منتصرا ومنحته الملكة وسام ربطة الساق جزاء على عمله الجليل

سحب وغيوم

وبدأ الجو يكفهر أثر عودة دزرائيلي فائزا منتصرا اذ كان الروس يتوددون منذ مدة الى امير الافغان واستطاعوا بالاتفاق معه الى ارسال بعثة الي كابل عاصمة ملكه . وأثار هذا العمل الحقد في نفس لورد « ليتون » حاكم الهند العام ونائب الملك وكان دزرائيلي قد اختاره لهذا المنصب لانه ابن صديقه « بولز » اولا لانه رجل مطامح عرف ببعد النظر والعزيمة القوية ثانيا . وقد دلت الحوادث على صحة هذا التقدير غير انه خالف أمر رئيسه في هذه المسألة وأرسل بعثة انجليزية الى كابل منعها الامير من اجتياز الحدود . وفجأة وجد القائد نفسه مضطر اما ان يخضع امام عصابات بربرية او يجازف في حرب خطرة لايعرف مداها

وانتهز « غلادستون » وصحبه هذه الفرصة وشن الغارة على الوزارة وخاف دزرائيلي أن

يلقي التبعة على اللورد « ليتون » ورأى مناصرته وتعضيده حتى انتهى الى أن هزم الجنرال « روبرت » قوات الامير

وتطورت الحوادث بعد ذلك وهدأت ثائرة الافغان غير أن نيرانا أخرى بدأت تشتعل فى جنوب أفريقا كما بدأت القوات الانكليزية فى الكاب والترنسفال وزولولاند تلاقى صعابا جمة . وكان لورد « كارنارفون » وزير المستعمرات يعتقد أن تجربته فى ضم المقاطعات المتخصصة فى كندا واتحادها وجعلها مستعمرة واحدة قد تنتج ضم جنوب افريقا الى البرتغال غير أن هذا الرأى اثار قبائل « الزولوس » ضد انجلترا وانتهى بان مات أكثر من الف وخمسمائة عسكرى

وفى أغسطس سنة ١٨٧٩ هدأت الحالة وترك فرسان الروس الاراضى التركية نهائيا واستقرت فرقة انجليزية فى كابل واسر « ولسلى » زعيم الزولوس فى جنوب افريقا وعلى حين غرة اتصل الى دزرائيلي خبر المذبحة المريعة التى قتل فيها رجال البعثة الانجليزية

وعبس الحظ فى وجه دزرائيلي وبدأ الناس يتحدثون عن « النبى الكاذب » ويمتدحون « غلادستون » وأراءه ونظرياته وسياسته . وبدأ « غلادستون » رغم مرضه وكبر سنه يلعب دوره على مسرح السياسة ويجول فى المقاطعات والبلاد منددا بسياسة دزرائيلي كما أخذت الصحف تنشر له مقالات مسهبة استعدادا لحملة الانتخابات العامة

ودلت نتيجتها على فوز الاحرار وأسفت الملكة لهذه النتيجة اذ كانت تود بقاء دزرائيلي فى الحكم الى جانبها

وكان على الملكة أن تختار من الاحرار بين « هارنجتون » و « جرانفيل » غير ان « غلادستون » هدد بعدم تأييده لاية وزارة لايكون على رأسها

ورأت الملكة تقديرا لجهود دزرائيلي أن تمنحه لقب دوق غير انه رفض خشية ان يثير هذا العمل شعور الشعب

وعاد اليه حب المطالعة وشغف القراءة وحبه للادب وفكر فى كتابة قصة تعنى بالشئون السياسية . وظهرت القصة وباع سكرتيره حقوق طبعها بعشرة آلاف جنيه أسس ببعضه بيتا جديدا فى لندن حيث ظل فيه تسع سنوات

وحده

وظل دزرائيلي بعد ذلك وحيدا منفردا يقضى أكثر وقته بين كتبه واوراقه وذكرياته .

وكان أحب الاشياء اليه نهارا أن يمد قدميه الى أشعة الشمس وان يستقبل فى المساء نجوم السماء وحوله مختلف الزهور والرياحين

وقضى عيد ميلاد سنة ١٨٨٠ وحيدا وكانت سلوته الوحيدة القراءة حول الموقد فاذا أخذه النعاس ذهب فى أحلامه ماشاء الله له أن يفعل ودفعه الخيال إلى زوجته واحاديثها وبنات « شريدان » الجميلات

وعاد الى لندن فى الايام الاخيرة من شهر ديسمبر وأخذ يزور أصدقاءه ويتردد على مجلس الوردات رغم ما كان يشكو منه من مرض الربو

وكان شتاء يناير سنة ١٨٨١ قارسا قاسيا الزمه ان يقضى أياما كاملة ممددا على وسادته . وفى أوائل مارس بدأ يستعيد نشاطه ويتردد على مجلس اللوردات ويستقبل الربيع بجماله وزهوره ورياحينه . غير انه فى نهاية شهر مارس اصيب بقشعريرة الزمته الفراش اتضح انها نزلة شعبية مصحوبة بربو . وقلقت الملكة لمرضه وواظبت على زيارته وارسال باقات الورد والبنفسج

وبدأت الجماهير فى الشوارع تترقب عن كثب اخباره . غير انه فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨١ فى الساعة الثانية صباحا لاحظ طبيبه ان نهايته قد اقتربت وفجأة حرك المريض رأسه والقى الى الوراء كتفيه وتحركت شفتاه فانحنى اصدقاؤه عليه ولكنه انطرح الى الوراء ولم يستطع أن ينهض بعد ذلك من رقدته

ورغب « غلادستون » رئيس الحكومة فى ذلك الوقت فى ان يحتفل به رسميا وان يضم جثته فى مقبرة العظماء « وست منستر » ولكن وصيته الزمتهم ان يضعوا جثته بجانب زوجته فى بلدة « هيوجندن » فى احتفال بسيط سار فيه البرنس اوف ويلز وقليل من اصدقائه

وبين لفافات كتفه وضعت الملكة لفافتين من الزهر كتب على الاولى « زهرته المحبوبة » وعلى الثانيه بخطها « رمز الوداد الخالص والصداقة والاحترام »

ولم تستطع الملكة الاشتراك فى جنازته لاقامتها فى ذلك الوقت فى « اوزبورن » فلما مرت فى عودتها على قبره تفضلت بزيارة المقبرة واقامت له فى الكنيسة تمثالا على نفقتها كتبت عليه عبارة تقدير واحترام

وهكذا يجب ان يعيش الرجال ليخدموا بلادهم فى صدق واخلاص وهكذا فليعمل العاملون

أخبار اقتصادية

مصنع زجاج محمد سيد ياسين وشركائه

لم يكن للزجاج فى مصر الى سنة ١٩٣٣ غير ورش يدوية صغيرة تنتج بعض أصناف من الزجاج الابيض ولا سيما الملون منها على أشكال غير منتظمة ينقصها التهذيب كانت تسترعى لغرابتها وشذوذها أنظار الأجانب . وكان إنتاج هذه الورش محدوداً جداً لايكفى لسد حاجة البلاد المتزايدة . وقد حاول البعض مرتين أو ثلاث مرات إدخال الطرق الحديثة لهذه الصناعة فى البلاد ولكن هذه المحاولات كان مصيرها إلى الاخفاق

على أن الحكومة لم تلبث أن أنشأت فى سنة ١٩٣٣ معهدا نموذجياً لتدريب الطلبة عملياً على صنع الزجاج وفى السنة نفسها أنشأ الأستاذ محمد السيد ياسين وشركاؤه فى ضواحى القاهرة مصنعاً للزجاج

أنشىء هذا المصنع فى شبرا على ضفة النيل بالقرب من القناطر الخيرية وهو يتألف من بناءين أحدهما بالطوب والاسمنت المسلح على قطعة من الارض تبلغ مساحتها الف متر مربع والثانى ـ وهو على وشك الانتهاء ـ على قطعة تبلغ مساحتها ٢٠٠٠ متر مربع . هذا فضلا عن مخزن مترامى الأطراف شرعوا فى اقامته على أرض مساحتها نحو ستة آلاف متر مربع لقسم التعبئة والمخازن التى تودع فيها منتجات المصنع . وهناك مبان أخرى للمكاتب وورش الاصلاح وغسل الرمل وتجفيفه وجميع هذه الابنية منشأة على أحدث طراز وهى ملك الشركة

وقد بدأ المصنع عمله فى سنة ١٩٣٣ بصنع زجاج المصابيح والاصناف العادية من الزجاج وللمصنع الآن فرن كبير مستدير لصنع الزجاج يحمى بالمازوت ويستطاع إيصال درجة الحرارة فيه إلى ١٤٥٠ وقد بناه اختصاصيون المانيون تحت إشراف مخترعه . وحول هذا الفرن ينفخ الزجاج أو يكبس فى قوالب خاصة ثم تنقل المصنوعات ولا تقل حرارتها عن ٦٠٠ درجة الى سلسلة افران أخرى للتبريد فتعود بعد ثمانى ساعات إلى حرارتها الطبيعية وتكتسب مناعة تجعلها أقل عرضة للعطب والانكسار

وبعد تبريدها تبدأ سلسلة عمليات التهذيب الاخري « قطع الزجاج بتعريضه للنار وتسوية الحروف وصقلها بالمس وتدوير الاطراف وطبع العلامة التجارية على بعض الاصناف كزجاج المصابيح » وكل ذلك بواسطة آلات حديثة بالغة العناية من الاتقان

أما المكان الذى أوشك أن يتم بناؤه فسيجهز به فرنان لصنع الزجاج وأفران عدة للتبريد وما يلزم من أدوات الصقل

ويجد المصنع كل ما يحتاج اليه من المواد الأولية فى البلاد نفسها أما المادة الاساسية وهى الرمل فتأتيه من « ابو الدرج » الواقعة فى جنوب السويس وعلى بعد ٢٠٠ كيلو متر منها . وهو مزود بآلات من أجود طراز لغسل الرمل وتجفيفه وغربلته وسحقه ومزجه بما يلزم من المواد الاخرى كالصودا والطباشير والنطرون والملح ونترات الصودا وفضلات الزجاج وهذه المواد تعبأ بعد مزجها فى أكياس يبلغ وزن الواحد منها مائة كيلوجرام لتسهيل تغذية الافران . ولا يستورد المصنع من الخارج غير مقدار قليل من رمل فونتنبلو لا يتجاوز ٥٠٠ طن فى السنه

ويتناوب العمل فى المصنع ثلاث فرق من العمال تشتغل كل واحدة منها ثمانى ساعات فى اليوم ويعمل فيه فى الوقت الحاضر ثمانون عاملا تشيكوسلوفاكيا عليهم رئيسان منهم وأربعمائة عامل من المصريين . وقد استأجر أصحاب المصنع لسكنى العمال التشيكوسلوفاكيين منزلا بالقرب من المصنع تتولى فيه أعمال الطبخ طاهية تشيكوسلوفاكية

ويقوم المصنع الآن بصنع زجاج مصابيح البترول والاقداح العادية وقنانى الادوية والأوعية الزجاجية التى يوضع فيها السمن والزبدة والملح والزيت فضلا عن الصحون وما شاكلها ويبلغ مقدار ما ينتجه من هذه الأصناف نحو ثلثى ما تستهلكه البلاد والمنتظر أن يتمكن بعد اتمام المنشآت الجديدة التى سبقت لنا الاشارة اليها من أن يسد حاجة البلاد كافة بل أن يصدر مصنوعاته إلى السودان وسوريا وفلسطين وغيرها

ولقد كان لهذا المصنع أثر كبير فى واردات الزجاج إلى القطر المصري فنقص مقدارها نقصاناً عظيما كما يتبين من الاحصاء الاتى :

سنة ١٩٣٤	١٩٣٥	« ١١ شهراً »
زجاج المصابيح	٣٤٣٥١ ج م	٩٦٧٧ ج م
الاقداح	٤٠٢٠٥ «	٢٦٩٧٥ «

ولا يسعنا الا أن نهنىء الاستاذ محمد السيد ياسين وشركاءه بما فعلوه من تزويد البلاد بمصنعهم الذي أقاموه على أحدث طراز وعدم ترددهم فى الاستعانة بعدد كبير من العمال الاختصاصيين الاجانب ليسهلوا لليد العاملة المصرية التدرب على الاعمال الفنية على الوجه الأتم الاوفى . فان بفضل هذه الروح التى لا يسعنا الا الاشادة بها قد تمكنت منتجات مصنع ياسين من أن تبارى أفضل ما يرد الينا من المصنوعات الزجاجية الاجنبية وأصبح فى مصر بضع مئات من العمال البارعين فى هذه الصناعة .

الاتفاق بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس

شملت التسوية الاخيرة التى عقدت بين الحكومة وشركة قناة السويس جملة مسائل : أولها مسألة رسم المرور . ولقد كان هذا الرسم محددا بفرمان الامتياز المؤرخ فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ بحد أقصى قدر ١٠٥ فرنكات لكل طن من حمولة البواخر ولكل فرد من الركاب فمن الآن فصاعدا سيحول هذا الرسم رسم العشرة الفرنكات التى لم تفتأ « الشركة تحسبها فرنكات ذهبية » الى قروش مصرية بواقع الفرنك ٣،٧٥٧٥ غ ص أى ٣٨،٧٧٥ غ ص للعشرة الفرنكات ولكن هذا السعر سيبقى دائما قابلا للتعديل بقرار من وزير المالية بناء على طلب الشركة دون أن يجاوز قيمة ٣ جرامات و ٢٧٨٨٧٥ من كسور الجرام من الذهب الخالص ذى عيار ٨٧٥ / ١٠٠٠ محسوبة بالقروش المصريه

وبعبارة أخرى يجوز دائما ان يبلغ رسم المرور المحصل بالقروش المصرية حدا أقصى قدره ١٠٥ فرنكات ذهبا اى ١٨،٥٧٥ غ ص ذهبا أى ٦٤ غ ص على أساس البدل الحالى

وبذلك ضمنت لشركة القناة فى حدود القوانين المصرية الخاصة بتداول النقد ، الحقوق التى اعترفت لها بها فرامانات الامتياز وجعلت ايراداتها من رسم المرور فى مأمن من كل هبوط خطير محتمل حدوثه فى قيمة العملة المصرية

ومما هو جدير بالملاحظة فى هذا الصدد ان رسم المرور عن كل طن من الحمولة الذى يحصل الآن هو مبلغ ٣٦،٥٦ غ. ص معادل ٥ فرنكات و ٧٥ سنتيما ذهبيا . فهو اذن اقل من العشرة الفرنكات المصرية ٣٨،٥٧٥ غ . ص ولا تحسب التسوية التى نالتها الشركة ازاء مرسوم ٢ مايو سنة ١٩٣٥ القاضى بالغاء نص الذهب من العقود الا ضمانا للمستقبل فقط

أما وقد قبلت الحكومة ان تؤيد اساس الذهب لتعريفة رسم المرور فقد رأت شركة القناة من جهتها أن تجيب الطلب الموجه اليها فمنحت مصر الميزات الآتية

١ ـ تعيين عضوين مصريين فى مجلس ادارة الشركة

٢ ـ التوسع التدريجى فى استخدام شبان مصريين فى هيئة مستخدمى الشركة فى مصر بحيث تبلغ نسبتهم ٢٦ فى المائة من جملة المستخدمين فى سنة ١٩٥٨

٣ ـ دفع حصة سنوية للحكومة المصرية قدرها ٢٠٠٠٠٠ ج م

وبذلك عادت مصر فاصبحت شريكة فى استغلال مشروع القناة بعد أن فقدت حصتها ببيع الاسهم التى كان خديوى مصر قد احتفظ بها لنفسه وبالتنازل عن ١٥ فى المائة من الفوائد التى كان يحق لها الحصول عليها

ولقد تناول الاتفاق فى الوقت نفسه بعض مسائل أخرى ذات أهمية ثانوية ترتبت على حلها تسوية بعض الارقام الواردة فى المعاهدات الاصلية المبرمة بين الحكومة والشركة وازالة بعض العقبات التى نشأت فى تفسير هذه المعاهدات وقد تم كل ذلك فى جو من الصداقة والتفاهم المتبادلين

من ذلك ان الحكومة أيدت ما للشركة من حق معترف به فى المعاهدات باعفائها من الرسوم الجمركية ورسوم الانتاج من جميع البضائع والادوات المستوردة من الخارج لحاجة المشروع وكانت وزارة المالية قد أثارت مسألة رسوم الانتاج منذ زمن وبقيت هذه المسألة معلقة الى أن تمت تسويتها الآن

وحصلت الشركة من جهة أخرى على زيادة مقدار المياه الذى كان مخصصا لها منذ سنة ١٨٨٦ لحاجة سكان المدن الواقعة على القناة وعلى زيادة المبلغ الاجمالى الذى كانت تدفعه لها الحكومة للقيام بتعهد الطرقات والمغروسات فى الاسماعلية وبور توفيق وهو لم يتغير منذ سنة ١٨٨٤

وحصلت الحكومة المصرية من جهتها على زيادة مساحة الاراضى التى تجعلها الشركة تحت تصرفها لحاجة مصالحها وعلى الغاء النص الذى يحدد حمولة البواخر التابعة لها المعفاة من رسم المرور

واخيرا اتفق الفريقان على توسيع مدينة بور فؤاد فى حدود امتياز شركة القناة وتم التفاهم على تبادل بعض المساحات بين الشركة والحكومة لتسوية الحالة الناشئة عن احتلال مصلحة السكك الحديدية بعض اراض تابعة لشركة القناة

اخبار اجتماعية

الحرية فى التعليم

كتب الاستاذ أوفيد ديكرولي يقول :

ليس ثمة بين الألفاظ ما يجارى لفظ الحرية فى تعدد المعانى وتضارب الآراء ، وسواء أكانت مستعملة فى معانيها السياسية أم الدينية أم الاجتماعية أم الفلسفية ، فانها قد تؤدى الى معان متباينة ومقاصد مختلفة فى نفوس الافراد والجماعات

وقد يحدث أن أمة تكون غيورة على حريتها ، تدافع عن سلامتها وتذود عن حياضها بكل ما أوتيت من القوة والبطش والمال والرجال ، ومع ذلك فانها تنتهك حرية الجماعات والأفراد فيها

وأكثر من ذلك أن يكون الفرد ملتهباً حماسة وممتلئاً إيماناً بمبادىء الحرية الفردية والاجتماعية ومع ذلك فأنه فى تصرفاته الخاصة مع الافراد والجماعات يظهر بمظهر الاستبداد والتعسف ، والظاهر أن هناك تناقضا بين تصور حرية الارادة وبين الحرية التى يميل الفرد الى استخدامها مع الغير . ومما لا يختلف فيه اثنان أن حرية الفرد مقيدة بالتضحية التى كثيرا ما تتطلبها حاجات المجموع ، كذلك حرية الجماعات الصغيرة مقيدة بالتضحية التي كثيرا ماتتطلبها حاجات الجماعات الكبيرة

ويظهر أن الحرية التى طالما أبحناها الطفل تختلف معنى عن الحرية المعتادة التى يقصد بها قوة الامر التى يتصف بها الضمير . وعند ما يأتى الطفل أمرا منافراً لرغبات أهله أو معلميه ، يفسر فعله عادة بأنه نتيجة طبيعته ، أى أن الطفل انما أتاه مدفوعا بشعائره وميوله الطبيعية . غير أن هذا تفسير غير دقيق ، لان فى معظم الاحيان « ترك الطفل فى حريته » يمرح كيف يشاء ، وأنى يشاء ، ومتى يشاء ، لا ينتج عنه تنمية ارادته وتقوية مجهوداته ، كما يظن البعض بل يقصد به فى الحقيقة الافراط فى التسامح معه والمغالاة فى تركه يستسلم لخياله وتصوره الصبيانى ، فيشب طماعا فظا ، ثرثاراً ، قذراً ، طائشا ، غليظ الطباع ، قاسى المعاملة ، محبا للخصام ، عدوا للنظام ، خاملا ، وهذه الرذائل وامثالها ، مما نشاهده عادة فى المتشردين واللقطاء من صبية الشوارع والطرقات الذين

لايجدون والدا يكبح جماحهم ، أو معلما يسير دفة حريتهم . فيطلق لهم الحرية متى ولوا زجوهم شطر الاستقامة ، ويرسم لهم الطريق السوى متى زاغوا

ويقول الذين ينادون بتقييد حرية الطفل أن الطفل اذا أطلقت له الحرية بغير حساب يميل إلى إظهار العواطف الضارة الخطرة التى تنتج عادة عن غريزة حب الذات . فالصغير الذى لاتقاوم شكيمته باسم الحرية ، يربى نفسه على العادات الضارة كالابطاء فى لبس الثياب واهمال نظافة جسمه وعدم مراعاة الدقه فى هندامه ، وعدم الاكتراث بآداب المائدة كالاكل بشراهة ، واستخدام أدوات المائدة فى غير ما وضعت له ، واظهار السماجة ، والضوضاء ، ونسيان الذوق والكياسة واللياقة ، والرغبة فى الاستيلاء على أجود الطعام بغض النظر عن الآخرين ، واستعمال الغلظة والقسوة والوحشية حتى مع اخوته وأخواته ، والسطو على كل ما تهواه نفسه ، وتمزيقه اذا حال أحد بينه وبين ذلك الشىء

وعلى هذا المنوال إذا ترك التلميذ فى المدرسة طليقا يفعل ما تمليه عليه طبيعته ، باسم الحرية فانه لايمضى طويلا حتى تطفح نفسه بالميول الخبيثة والصفات الناجمة عن غريزة حب النفس ، فيناقش معلمه ويجادله فى كل صغيرة وكبيرة ، ويعاكس رفاقه ، ويلجأ الى العنف والقسوة ، والتأخير والاهمال ، والقاء المسئولية عرض الحائط ، وسوء النظام ، ورفض النصح ، والخروج عن حد الطاعة . غير أن هذا ليس نهاية الامر ، فمن الخطأ أن نقول أن منح الحرية للطفل يؤدى الى النتائج السالفة وحسب ، لان الصورة التى رسمناها للقارىء لم ينظر اليها إلا من وجه واحد . فلننظر إذن من الوجه الآخر :

إن اطلاق الحرية للطفل تظهر أيضا ميوله الشريفة ، فكما أن الصبى فى حريته ، تتجلى ميوله الدنيئة ، كذلك فى الحالة عينها تتجلى صفاته الحسنة . فالطفل فى حريته مدفوع بقوة الغريزة وحكم الطبع ، أن يستكشف العالم بأسره ، الكبيرة فيه والصغيرة ، الشاردة والواردة ، فيعمد الى المسائل التى تصادفه فى الحياة فيحلها ويحاول بنفسه القيام بالتجارب فهما للاشياء التى تخفى عليه ، ويحاول التعبير عن آرائه رغم ما يلاقيه من صعوبة الكلام ، واستخدام الالفاظ لاداء المعانى ، وبعبارة أخرى أنه يحاول بكل قواه أن يتلمس الحقيقة فى الظلماء ، ويحاول الخروج من عالم الخيال إلى عالم العمل . وهذا جميعه يدعونا الي التفكير فى ما يجب أن نهيئه له من الاوساط التى تحثه على اخراج أفكاره من حيز الاوهام إلى حيز العمل وأن يكون هذا بأقرب فرصة ممكنة وبأسهل

الوسائل ، لان كل تأخير أو عقبة يضيع على الطفل شطراً من عمره حتى أنه يبلغ العشرين مثلا ومجموع اختباراته ومعلوماته لا توازى معلومات آخر يبلغ الخامسة عشر . ويقصد بتهيئة الوسط أن تكون البيئة فى حالة تغرى الطفل فيجد أمامه من المسائل مايستميله الى حلها أو القيام بالتجارب أو التفكير أو الاستكشاف ، أو الابتكار وبالاختصار يجب أن يكون الجو الذى يعيش فيه الطفل صالحا لاثارة العواطف الشريفة واخماد الغرائز والميول الدنيئة

ويتضح من الصورتين اللتين رسمناهما للقارىء ، أن كل حرية فى الصورة الاولى يجب أن تقيد وتخمد ، وكل حرية فى الصورة الثانية يجب أن تشجع وتقوى

ومهما تعددت مدلولات ومعانى الحرية ، فانه يقصد بها فى هذا البحث ، فوق كل شىء ، ازالة العقبات والموانع التى تحول دون اظهار الميول غير الضارة فى الطفل

ولا يغيب عن اذهاننا أن النوع الضار من الحرية يفتاب الكبار أيضا ، فطالما اتخذ المعلمون ما لديهم من الحرية الشخصية ، اضراراً بالاطفال الذين تركوا وديعة فى أيديهم ، فلا يفكرون إلا فى حريتهم ورغباتهم وملذاتهم وراحتهم ، ويتركون تلاميذهم يعذبون فى قيود وأغلال ، وهؤلاء المعلمون يجنون على تلاميذهم ، وعلى مبادىء التعليم ، ولا ذنب لاولئك الصبية الا أن القدر قد طوح بهم الى أيدى اولئك المعلمين ، فأخمدت فيهم أشرف الغرائز ، وقتلت مواهب التفكير ، والابتكار ، والشجاعة ، فشبوا خاملين جبناء

وهذا فى نظرى من أمهات المسائل فى فلسفة التعليم ، لذلك ينبغى أن يوجه المربون الى أنفسهم هذه الاسئلة : —

هل يجب أن تكون تهيئة البيئة بالنظر الى الكبير أو الصغير ؟

هل يجب أن يكون للكبير المكانة الاولى أو للصغير ؟

هل ينبغى أن تكون الاوساط المنزلية والمدرسية مرعية فيها راحة الكبير أولا أو راحة الصغير ؟

ألا يجب أن تتوافر فى المدارس (اذا لم تتوافر فى المنزل) الحدائق والملاعب وآلات الموسيقى وأدوات الاعمال اليدوية والصناعات ، حتى تنمو فى الطفل قوة الملاحظة والعمل ، فيفكر فى النبات والحيوان وتنمية جسمه وتقوية عقله ، وتربية ملكة الاعجاب فيه ، والشغف بالفنون الجميلة ، واستخدام يديه فى الصناعات واحترام الاعمال اليدوية ؟

ومن الوجهة التهذيبية تكون القيود فى اطلاق الحرية أقل خطراً إذا جاءت عن طريق البيئة ، فان تأثير المعلم فى التلميذ . وتأثير الكبير فى الصغير عظيما الاهمية ، بيد أن تأثير البيئة اكبر

تقدم العلوم والفنون

عجائب الغريزة

كتب أحد العلماء الانجليز هذه الكلمة المفيدة عن الغرائز

ظلت الغريزة فى الحيوان لغزا لم يتوصل العلماء إلى ادراك كنهه الوفا من السنين، وسراً لم يكتشفه الباحثون دهوراً طويلة ، فالانسان يجب أن يلقن مهنته قبل أن يغامر بنفسه فى الحياة ، أما الحيوانات والطيور فانها تحيط بغريزتها التى فطرت عليها بالوسيلة التى تتذرع بها لتبنى أوكارها وعشاشها وتعرف كيف تدخر غذاءها وأقواتها وتلم فوق ذلك بالطرق التى تسلكها فى ثقة واطمئنان لمواجهة الطوارىء الناشئة المديدة

فالطفل الذي يشب وحيداً لا يرعاه أهله أو غيرهم من البشر ينمو ألكن عي اللسان ، فاذا لم يدرب على الحبو لا يصبح فى مقدوره السير معتدل القامة مستقيم البناء ، ولكن الطيور المغردة التى تكبر بعيدة عن أسرابها وعشيرتها تتعلم بغريزتها التغريد والغناء كما تفعل أخواتها وفصيلتها

والرجل الذي لم يتلق من التعليم قسطا كافيا لا يستطيع أن ينجز شيئا فنيا مهما كان تافها بسيطا ولكن الصقور والنسور تبنى عشاشها فى أعالى الاشجار المعرضة للرياح الشديدة بطريقة هندسية عجيبة لا يصيبها شيء من الخلل أو التلف عند هبوب العواصف المتدافعة والانواء المخربة ، كما كانت تفعل أسلافنا منذ فجر التاريخ ودون أن تتلقى عنها دروسا فى هذا الفن المعمارى الغريب

ولم تقتصر هذه الغريزة على الحيوانات والطيور العليا ولكنها تعدتها إلى أنواعها الصغيرة فى الجرم الضعيفة فى التكوين ، وقد امتازت الاخيرة أيضا بمقدرة عجيبة فى العمل على وقاية نفسها والاطمئنان على حياتها ضد هجمات أنواع الحيوانات والطيور الوحشية الكاسرة ، فتعمد دائما إلى انشاء تحصينات محكمة الصنع ، متينة التعميم تحتجب وراءها عن عيون أعدائها وتحتمى بها من الوقوع فى مخالبها القاسية

وللحيوانات والطيور على العموم مقدرة مدهشة على حل ما يعرض لها من المشكلات . فقد كنت مرة أقوم بتصوير أحد الطيور المغردة ولاحظت من مخبأى الذي جثمت فيه أنه صرف

نحو العشرين الدقيقة محتضنا بيضه في عشه ثم نفر منه وحلق حتى حط فوق بضعة أحجار صغيرة قريبة من المكان واحتضن هذه الاحجار مدة عشرين دقيقة كذلك طار بعدها إلى عشه حيث احتضن بيضه فيه كذلك . وظل طول اليوم يتردد بين المكانين فيمكث في كل منهما حوالي العشرين الدقيقة . وفي المساء أردت أن أنفذ الى سر جلوسه فوق الاحجار وكم دهشت اذ وجدت بينها احدى بيضاته التي وضعها هناك ولم يستطع حملها إلى عشه فقسم وقت الحضانة مناصفة بين المكانين . وهذا أمر مدهش عجيب يدلنا على أنه وجد بغريزته حلا للمشكلة التي عرضت له في ضرورة حضانته للبيض كله

ولقد شاهدت مرة جيوشا جرارة من النمل تسير بعضها في أثر بعض صعودا وهبوطا على جذع شجرة مورقة وهي تحمل غذاءها وأقواتها لتودعها في مخازنها التي أعدتها لذلك فأردت أن أختبر قدرتها على حل مشا كلها فأحطت جذع الشجرة بدهان لزج عرضه بوصة عندمنتصفه فطفق النمل يتلمس طريقه إلى مخازنه متجنبا ذلك السياج فلما أعياه البحث عنه ولم يجد وسيلة للتغلب على تلك المادة اللزجة التي لايستطيع الخوض فيها ، ترك أغذيته التي يحملها في مكانها وذهبت جموعه الـكثيفة كأن الوحي ألهمها جميعا ثم عادت تحمل كلها قطعا صغيرة من أوراق الاشجار والنفايات وكدستها بعضها فوق بعض في مكان واحد فوق هذه المادة اللزجة . ولم يمض وقت طويل حتى رأيت قنطرة عجيبة ، واستطاع النمل أن يعاود مسيره عليها حاملا ذخيرته الشتوية التي يجاهد للاحتفاظ بها

أما الدجاج فانه آخر من يعتمد به في مسألة القدرة على حل مشاكله بالغريزة ، إذ أن هذا النوع من الطير ظل ألوفا من السنين يعتمد علينا في اعداد غذائه وتهيئة بيته له ولم يتكلف خلال هذه الاحقاب الطويلة القيام بعمل يذكر في هذا الشأن ، والدجاج اذا لم يجد مبيته معدا له تكدس فوق بعضه في أحد الاركان القريبة حتى ينقضي الليل ، أما اذا افتقر إلى الغذاء فانه يظل ينبش الارض بأظافره ومنقاره في مكان دون ان يكلف نفسه القيام برحلة طويلة كما تفعل بقية الطيور والحيوانات ، وفوق ذلك فانك تستطيع أن تخدعها فتحملها على احتضان قطعا صلدة من الاحجار مدة الحضانة المعتادة وهي ثلاثة أسابيع متخيلة أنها بيضها فلما لاتنفق صغارها منها تتركها غير آبهة بها بعد أن تكون قد شقيت في نقرها ، ولقد وضعت مرة قطعة من الزجاج في طريقها المعتاد الى حيث يوجد غذاؤها اليومي فكان الدجاج كله يدور حولها ويتحاشى تخطيها ، فلما رفعت

الزجاج بعد بضعة أيام استمر مبتعـدا عن المكان الذى كانت فيه وتحاشت المرور فوقه وهذه غريزة عجيبة شاذة فى هذا الطير الغريب

وهناك أمر فاقت فيه الحيوانات والطيور الانسان من حيث الادراك العالي والمقدرة السامية التي تختلط بالغريزة فيها ، فكثيرا مايحدث أن يضل الانسان طريقه سواء أكان فى المـدن أم فى الصحراء ولا يدرى كيف يتخلص من مأزقه ويعود الى موطنه ، ولكنك اذا وضعت كلبا أو طيرا فى نفس المشكله لاستطاع بعد ساعات قليلة أن يعود الى مكانه الذى يعيش فيه ، وهناك طيور خاصة تحمل فى سلال ألوفا من الاميال بعيدا عن موطنها فعند ما يخلى سبيلها تطير صاعدة فى الجو الى ارتفاع شاهق جدا وهى تتحسس بطبيعتها وغريزتها الاتجاه الذي به عشها وموطنها حتى اذا وثقت منه اندفعت متجهه اليه دون تردد أو خطأ ، واننا لنرى ان كثيرا من القطط الاليفه قد استطاعت أن تعود الى البيت الذى الفته بعد أن تؤخذ الى مكان بعيد بغيه التخلص منها

وهناك الطيور المهاجرة التى تترك بلادها كل شتاء متجهه الى المناطق الحارة لتتوالد فيها فانها تقوم برحلة تبلغ عشرات الالوف من الاميال عبر جبال شاهقه وبحار واسعه دون أن تخطىء أو تضل الطريق الذي تعبره مرتين فقط فى العام

فهذا الادراك العالى الذى احرزته هذه الطيور والحيوانات هو لغز الغريزة الذى عجز العلماء عن حله اجيالا متعاقبة . وليس من المنتظر أن يوفق احد الى الوصول الي كنهه

الزراعة فى الصحراء

تنتهى صحراء مصر شمالا بالبحر الابيض المتوسط ، وشرقا بالبحر الاحمر وقد تتساقط الامطار كل سنة على شواطىء هذه البحار فتروى جزءا من الساحل فينبت الزرع بحالته البرية أو بمجهود من القاطنين بتلك الجهات

كما أنه يوجد فى داخل الصحراء الكبرى واحات تنفجر فيها الماء من عيون طبيعية تساعد على انتشار الزراعة

والمناطق السالف ذكرها هي : ساحل شبه جزيرة سينا الممتد من حدود مصر الشرقيه الى بلدة القنطرة . وساحل البحر الابيض المتوسط من مدينة الاسكندرية غربا الى الحدود الفاصلة بين مصر وطرابلس . واشهر الواحات الواقعه فى الصحراء الغربية هي : واحات سيوة ، والبحريه ،

والفرافرة والخارجة والداخلة . ويدلنا التاريخ على أن تلك المناطق كانت آهلة بالسكان ، عامرة بالمدن كثيرة الزراعة والصناعة ، وزيارة واحدة إلى تلك الاصقاع تحقق ماذكره التاريخ فالمتجول مثلا على ساحل البحر الابيض المتوسط غرب الاسكندريه يشاهد اطلالا كثيرة من المدن والآبار وخزانات المياه المطمورة والمعابد والحصون دليلا على كثرة السكان وتقدم العمران فى قديم الزمان ، كما أن المتجول فى الواحات يشاهد أيضا آثارا تنطق بانها كانت موضع عناية حكام مصر الى صدر الاسلام

ولنضرب بعض الامثال التاريخية للدلالة على صحة هذا القول . فقد قيل أن قمبيز ملك الفرس عندما أراد فتح واحات سيوه مون جيشه العظيم من الواحات الداخلة مما يبين أن الزراعة كانت منتشرة انتشارا عظيما بتلك الواحات ولا يكون ذلك الا بوجود عدد عظيم من السكان كما أن رغبة قمبيز فى فتح واحة سيوه دليل على ما كان لسيوه فى ذلك الوقت من المكانة

وقد شيد قدماء المصريين معبد آمون بسيوه وكانوا يعتقدون أن الشمس تغرب هناك ، وكان لمعبد آمون شأن عظيم فى العقائد حتى أن الاسكندر الاكبر ذهب خصيصا الى سيوه ليسترشد برأى الآلهة فى معبد آمون

وقد كانت الزراعة منتشرة انتشارا عظيما تبعا لكثرة السكان فى تلك الاقطار الى مابعد ثلاثة قرون من الفتح الاسلامى، ومن ثم ابتدأ الاضمحلال لأنه نتج عن كثرة الحروب والغزوات نقص فى العدد ونشأ عن قلة اليد العاملة ضعف فى الزراعة والصناعة ، فزالت كروم الاعناب من مريوط التى كثيرا ما ذكرها المؤرخون فى مؤلفاتهم ومغارس الزيتون التى لم يبق من آثارها غير المعاصر المطمورة ، كما انه تركت فى الواحات مساحات واسعة بدون زراعة حتى تضاءل المغروس منها الى الي الحد الادنى

واستمر الحال على ذلك الاضمحلال الي أن الحقت هـذه الصحراء بمصلحة الحدود فبدأت تنظمها تنظيما إداريا حتى استتب الامن ومن ثم تدخلت وزارة الزراعة لزيادة الانتاج فيها رغبة منها فى تعميم الرخاء

فأنشأ قسم البساتين محطة للتجارب عام ١٩١٨ فى برج العرب التابعة للصحراء الغربية والتى تبعد نحو ٤٠ كيلومترا عن مدينة الاسكندرية . والغرض من انشاء محطة التجارب الآنفة الذكر دراسة ما يجود من الاشجار والنباتات فى تلك المنطقة والمناطق المماثلة لها مستعينين على ذلك بمياه

الامطار والآبار . وتبلغ مساحة هذه المحطة نحو الف فدان مزروع منها الآن أكثر من نصفها .
ويسكن مناطق هذا الساحل عرب رحل من أولاد على يبلغ تعدادهم نحو أربعين الف نسمة تضاءلت سبل معيشتهم إلى حد أدنى حيث يزرعون الشعير على المطر ويرعون الابل والاغنام والماعز فى البيداء ، فاذا قل الغيث تلفت الزراعة وظهر شبح الجوع فيندفع البدو بجمالهم إلى وادى النيل يشتغلون فى حمل الاثقال باقى السنة إلى أن يأتي فصل المطر المقبل فيبذرون الشعير كالعام الذى سبقه متكلين بعد الله على الامطار لريه ، وقد يصادف ألا تصيب الارض شيئا من المطر جملة سنوات فيعم القحط ويقل التعداد ، وتصبح العربان فى ضنك . أما الاغنام والابل فترعى ماتنبته الارض من النباتات البرية ، واذا ماتكاثرت يبيع العربي نتاجها ليستعين به على درء غائلة الجوع . ومما تقدم يتضح أن سكان هذه المنطقة مهددون على الدوام بالقحط وليست هذه حياة هدوء واستقرار بل حياة فزع وجزع وكم من مرة أغاثتهم الحكومة بتوزيع كميات من الشعير لتغذيتهم

التلفون الرائى : اختراع المانى

افتتح قبل شهر فى مدينة ليبزج معرض الربيع للمصنوعات الالمانية والاجنبية الذى اعتادت المانيا اقامته فى كل عام

وقد رأت وزارة البريد الالمانية فى معرض ليبزج فرصه طيبة لافتتاح أول خط تلفونى رائى لمسافات طويلة فاقامت فى يوم افتتاح المعرض الخط الاول مابين ليبزج وبرلين وقد افتتحه فى ليبزج الدكتور كولر مدير المعرض وفى برلين الهر روبناخ وزير البريد . ثم اقبل الجمهور بعد ذلك على استعماله مقابل ثلاثة مركات ونصف عن كل ثلاث دقائق وكان الصحافيون أول من استعمله اذ تخاطبوا مع زملائهم فى مكاتب برلين

ومما يستحق الذكر أن المصلحة وضعت أمام كل تليفون كرسيا يجلس المتكلم عليه ويرفعه العامل أو ينزله حتى يصير على نسبة معينة من الآلة كى تظهر صورته وقد جاء الرسم واضحا الى حد ان الواحد يرى عقربى الساعه الصغيرة فى معصم محدثه ويرى الخاتم فى بنصر اليد الحاملة للتليفون .
ولا تزال هذه التليفونات الرائية محصورة فى مراكز التليفون العامة وكان الناس مهتمين بها كثيرا وكل انسان فى برلين وليبزج يسعى للتحدث فيها

كتب الشهر الجديدة

العالم كما رأيته

كتاب في خمسة مجلدات تأليف السائح المصري محمد ثابت
قامت بنشره مكتبة النهضة المصرية بمصر

لا تقل صفحات هذا الكتاب عن ١٥٠٠ صفحة فى وصف الاقطار التى زارها المؤلف . وأولها يصف القارة الامريكية . والثاني آسيا . والثالث أوربا . والرابع افريقية . والخامس الشرق الادني . والمؤلف معلم ينتهز كل فرصة فيرحل إلى احدى القارات البعيدة أو القريبة ويجوب أطرافها ويلم بما فيها من ناس وأشياء . وأحيانا يحاول المؤلف أن يحيط بأكثر مما يستوعب وهذا بالطبع لقصر المدة التى يقضيها فى الاقامة التى تستحيل إلى المامة خاطفة . ثم كثيرا مايغلب عليه روح المعلم الذى يدرس الجغرافيا بدلا من السائح الذى يقص النوادر . ولكنه فى كلتا الحالين مفيد سار . ففى كتابه عن أوربا نقرأ عن مساكن الفقراء فى اسكندناوة كما تقرأ عن الشفق القطبى. وعن الاعدام بالمقصلة فى لندن وعن شارب البيرة فى مونيخ وأمثال ذلك مما تمليه روح السائح . ولكن روح المعلم تصف خارطة أوربا (ويسميها خريطة) وجبال الألب وثلاجاتها واثار العواصم وروح المؤلف خفيفة حتى عند ما يريد أن يعلم ويفيد

الظلال

تأليف أحمد راسم صفحاته ١٦٦ من القطع الكبير طبع بمطبعة سكر بمصر

يحتوى هذا الكتاب تراجم طائفة من الرسامين والمثالين المصريين أو المتمصرين . وأوفى هذه هذه التراجم ترجمة محمود سعيد الذى يعرفه قراء هذه المجلة . فقد كتب عنه ٢٤ صفحة موضحة بكثير من رسومه . وكذلك كتب المؤلف عن ناجى ومختار وأحمد صبري وجورج صباغ وأبي نمر وراءول بارم وغيرهم .وكان يكون الكتاب أوفى وأوضح لو أن الصور طبعت على ورق الكوشيه ومن أحسن ما كتبه عن محمود سعيد قوله : « ان عجينة الالوان التى يرسم بها هي عجينة

حارة كأن عليها طبقة من الصدأ كتلك التي تعلو التماثيل التي تهزأ بالسنين والاجيال. ونحب أيضا فن سعيد لاشتماله على روح شهواني خفي. إذ ترى في معظم لوحاته ذلك الشيء الذي لا يمكن وصفه والذي يضغط القلب فيجعلنا نذكر لذاذات الحياة حتى أمام تصويره لصور المقابر التي يشيع في جوها حزن كشعور المحب حين يستروح شذا عطر يذكره بأويقات هناءة مضت. وتنبعث منه نغمات تزحف ببطء على الروح كأنها قبلة قاتلة »

ومع أن هذه العبارات خيالية فان مغزاها أدل على الحقيقة من الوصف المادى للرسوم. وهذا شأن المؤلف في سائر معالجته للرسامين. فانه يستنبط المعاني حتى يصل إلى المغزى. وكتابه لهذا السبب يعد درسا حسنا في النقد الفني

والكتاب مصدر بكلمة عن مختار كأنها الصلاة لهذا المثال الذى فقدته مصر ومات على غصة الاضطهاد من حكومة أوتوقراطية. وهذه الكلمة خير مايفتتح به كتاب عن الفن المصرى الحديث

شهران في أوربا

تأليف الصحفى العجوز صفحاته ٣١٥ من القطع المتوسط. طبع بالمطبعة العصرية بمصر

مؤلف هذا الكتاب هو الاستاذ توفيق حبيب الذي يروح عن قراء الاهرام كل يوم بأحاديثه البلدية الطلية. وهذا الكتاب يصف رحلته في أوربا. وهو فيها محدث يريد التسلية فقط. ولكن يعيب المؤلف أحيانا رغبته في أن يجمع الكثير من الحوادث والاوصاف في القليل من الصفحات فيطويها مسارعا بدلا من أن يبسطها متمهلا. ولكنه يعوض القارىء من هذا الوصف السريع نوادر وأحاديث تجعله لا يترك الكتاب حتى ينتهي الى آخره. فهو يقول عن حلاق الباخرة النيل

« وحلاق الباخرة النيل مصرى وطنى. حلاق وسياسى وصحافى معاً. هو الاخ أحمد المصرى الذى بدأ « الزيانه فى رءوس اليتامي » وهو صبي فى الثامنة من عمره. وتنقل من أصغر الدكاكين إلى أشهر الصالونات فى القاهرة. ومنها « لاجارسون » فى شارع قصر النيل و « الهايلايف » فى شارع فؤاد الاول. ولم يمنعه عمله عن الدرس والتحصيل. فدرس العربية والفرنسية ومبادىء العلوم والآداب. وألف نقابة للحلاقين فى سنة ١٩٢٤. واشترك مع الاساتذة عزمى وعنان والعناني وسلامة موسى فى تكوين الحزب الاشتراكى. وانضم الى النقابات العامة للعمال التي يديرها الشريف عباس حليم سنة ١٩٣٠ وحث الجماعة على انشاء صحيفة خاصة، فاتخذوا جريدة « المساء » اليومية

لسان حال لهم. وعينوه مديرا لها. وتقدم إلى شركة مصر للملاحة طالبا أن يعهد اليه فى ادارة صالون الباخرة النيل فى الموسم الحاضر من ١٥ يونيو الى ١٢ نوفمبر. وكان لمهارته ومعرفته باللغات الاجنبية الفضل فى قبوله. وقد هنأته بما ناله من توفيق ومركز لم يعرفه مصرى قبله. على ما أعلم »

الايحاء

تأليف الاستاذ وليم مرجيوس. صفحاته ١١٠ من القطع المتوسط طبع بمطبعة الشمس بمصر

مؤلف هذا الكتاب معروف بمؤلفاته التى تتصل بموضوعات العقل الباطن. وهو سهل العبارة غايته أن يفهم القارىء ما يشرح له. وقد عالج أثر الايحاء وقيمته فى الحياة الاجتماعية وتكوين الشخصية. والامثلة التاريخية التى يذكرها توضح النظرية التى يقدمها للقارىء. ويجدر بكل شاب أن يقرأ هذا الكتاب لكى يعرف شيئا عن أسرار النفس كما يجدر بالآباء قراءته أيضا لكى يقوا أبناءهم من الايحاءات السيئة. ومما قاله المؤلف عن تأثير الايحاء:

« وقد أجرى الدكتور دوران التجربة الآتية: قدم الدكتور لمائة مريض فى مستشفاه شرابا لذيذ الطعم خاليا من الشوائب، وبعد مرور ربع ساعة على تناولهم الشراب، وقف الدكتور فى الدهليز وسط المرضى، وضرب كفا على كف معتذرا! لان مقيئا شديدا اختلط بالشراب الذى قدم اليهم سهوا (والواقع انه لم يكن بالشراب أى مقيىء). حدث هرج بين المرضى ولم يمض طويل وقت حتى تقيأ أكثر من نصفهم، وذلك لان ايحاء فكرة المقيىء أحدثت عندهم قيئا! ومن الناس من يوحى اليهم منظر الليمونة فكرة الحموضة فيسيل لعابهم وتضرس أسنانهم! وذلك لأن التأثير الحسى المباشر الذى تحدثه الليمونة مرتبط مع ذكرى فكرة سابقة عن الحموضة تحدث ايحاء بذلك. ومن تجارب بافلوف الفسيولوجى الشهير انه أمسك قطعة لحم على بعد من أنف كلب فأحدث عنده افرازا سريعا للعصير المعدى. وعند ما انتشرت الكوليرا فى همبورج مات الكثيرون من أهلها بسبب اسهال نشأ عندهم نتيجة الخوف من الكوليرا دون أن يصابوا بها. وتحدث رؤية « المسهل » (الشربة) عند البعض آثارا شبيهة بما يحدثه تناول الشربة نفسها »

* * *

أرجأنا عرض ونقد الكتب الاخرى للعدد القادم